شلومو ساند

كيف لم أعد يهودياً؟

وجهة نظر إسرائيلية

ترجمة وتقديم: أنطوان شلحت



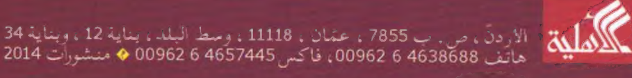


يشكل هذا الكتاب جزءاً أخيراً من ثلاثية يعرض من خلالها **البروفسور شلومو ساند**، أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة تل أبيب، إعادة نظر جذرية في عدّة مسلمات صهيونية صنميّة كاذبة.

وكان الجزءان الأول والثاني منها، وهما كتاب «اختراع الشعب اليهودي» وكتاب «اختراع أرض إسرائيل»، قد صدرا أيضاً بترجمة عربية عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- «مدار».

في هذا الجزء الثالث يسلسل ساند العوامل والأسباب التي تجعله يقرّر أن يكفّ عن كونه يهودياً، مشيراً على وجه الخصوص إلى أن التزوير وعدم الاستقامة والتبجح صفات محفورة عميقاً في جميع أشكال تعريف اليهودية في دولة إسرائيل، وإلى أن تعريف الدولة بـأنها «يهودية»، عوضاً عن تعريفها بأنها «إسرائيلية»، ليس تعريفا غير ديمقراطي فحسب، وإنما أيضاً يشكل خطراً على مجرد وجودها وبقائها.

يركّز الكاتب في هذا الإطار على أن ثمة علاقة وثيقة بين تعريف اليهود كـ «إثنوس» أو شعب ـ عرق أبدي وبين سياسة دولة إسرائيل، سواء حيال مواطنيها الذين لا يعتبرون يهوداً، أو حيال مهاجري العمل الذين قدموا إليها يائسين من شواطئ بعيدة، أو - بالتأكيد - حيال جيرانها مسلوبي الحقوق الواقعين تحت وطأة احتلالها المستمر منذ نحو خمسين عاماً.





كيف لم أعد يهودياً؟

How I Ceased to Be a Jew?
Shlomo Sand

كيف لم أعد يهودياً؟

شلومو ساند

ترجمة وتقديم

أنطوان شلحت

طبعة خاصة بالعالم العربي

2014



الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين - بناية رقم 12

هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962

ص. ب : 7855 عمّان 11118 ، الأردنّ

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ،

بجانب البنك المركزيّ الأردنيّ ، مكتب القاصة - بناية رقم 34

◆



مدار المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية

MADAR The Palestinian Forum for Israeli Studies

رام الله - المصيون - عمارة ابن خلدون - تلفون: 2966201 2 (972)

فاكس: 2966205 2 (972) - ص. ب: 1959

e-mail: madar@madarcenter.org

تصميم الغلاف: حسني رضوان

الترقيم الدولي: 978-9950-330-95-5

شلومو ساند

كيف لم أعد يهودياً؟

وجهة نظر إسرائيلية

ترجمة وتقديم: أنطوان شلحت





المحتويـــــات

إلى روح محمود درويش

تقديم

عن إسرائيل اليهودية والأكثر عنصرية...

بقلم: أنطوان شلحت

يشكل هذا الكتاب جزءاً أخيراً من ثلاثية يعرض من خلالها البروفسور شلومو ساند، أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة تل أبيب، إعادة نظر جذرية في عدّة مسلمات صهيونية صنميّة كاذبة بواسطة إخضاعها إلى محاكمة تاريخية صارمة.

وكان الجزءان الأول والثاني منها، وهما كتاب «اختراع الشعب اليهودي» وكتاب «اختراع أرض إسرائيل»، قد صدرا أيضاً بترجمة عربية عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- «مدار».

كان جهد ساند منصباً في الجزء الأول على تفكيك أراجيف متعلقة بإعادة كتابة وقائع الماضي اليهودي من طرف «كتّاب أكفاء» عكفوا على تجميع شظايا ذاكرة يهودية- مسيانية، واستعانوا بخيالهم المجنّح كي يختلقوا، بواسطة هذه الشظايا، شجرة أنساب متسلسلة لـ «الشعب اليهودي».

وفي الجزء الثاني، انصرف جهده نحو تفكيك أراجيف متعلقة بتوكيد صلة هذا «الشعب اليهودي» المختلق بفلسطين التي تم اختراع اسم لها هو «أرض إسرائيل» في سبيل إثبات تلك الصلة، وجرى استخدامه كأداة توجيه ورافعة للتَخيُّل الجغرافي بشأن الاستيطان

الصهيوني منذ أن بدأ قبل أكثر من مئة عام. وقام الكاتب في سياق ذلك بتقويض أسطورة كون «أرض إسرائيل» الوطن التاريخي للشعب اليهودي، وأثبت أن الحركة الصهيونية هي التي سرقت هذا المصطلح («أرض إسرائيل») وهو ديني في جوهره وحولته إلى مصطلح جيو - سياسي، وبموجبه جعلت تلك «الأرض» وطن اليهود، وذلك منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ويسلسل ساند في هذا الجزء الثالث العوامل والأسباب التي تجعله يقرّر أن يكفّ عن كونه يهودياً مشيراً على وجه الخصوص إلى أن التزوير وعدم الاستقامة والتبجح صفات محفورة عميقاً في جميع أشكال تعريف اليهودية في دولة إسرائيل، وإلى أن تعريف الدولة بـأنها «يهودية»، عوضاً عن تعريفها بأنها «إسرائيلية»، ليس تعريفا غير ديمقراطي فحسب، وإنما أيضاً يشكل خطراً على مجرد وجودها وبقائها.

يركّز الكاتب في هذا الإطار على أن ثمة علاقة وثيقة بين تعريف اليهود كـ«إثنوس» أو شعب ـ عرق أبدي وبين سياسة دولة إسرائيل، سواء حيال مواطنيها الذين لا يعتبرون يهوداً، أو حيال مهاجري العمل الذين قدموا إليها يائسين من شواطئ بعيدة، أو - بالتأكيد - حيال جيرانها مسلوبي الحقوق الواقعين تحت وطأة احتلالها المستمر منذ نحو خمسين عاماً.

ويلفت إلى أن من الصعب التنكر لحقيقة جارحة ومؤلمة فحواها أن تنمية هوية يهودية جوهرانية لا دينية، تشجع على التمسك بمواقف استعراقية (متمحورة حول العرق)، عنصرية أو شبه عنصرية، لدى أوساط عديدة واسعة، في إسرائيل وفي خارجها على حد سواء. بالإضافة إلى هذا ثمة علاقة وطيدة بين فهم اليهودية كهوية أبدية ولاتاريخانية وبين الدعم الجارف الذي يبديه جزء كبير ممن يعتبرون أنفسهم يهوداً لسياسة الإقصاء البنيوية، التي ينطوي عليها مجرد تعريف دولة إسرائيل لذاتها، ولسلطة الاحتلال المتواصل في مناطقها الكولونيالية.

يتخطى ساند في مستهل الكتاب الديانة اليهوديّة ويتطرّق إلى الدور البارز الذي أدّته الهويّات الدينية المختلفة في تصنيف البشر، وفي تفسير ظواهر طبيعية واجتماعية، وفي وعدِ المؤمنين بالحياة الأبدية أو بالتناسخ، وفي إخضاعهم إلى حقائقها الحصرية. من ثمّ ينتقل إلى

مفهوم الهويّات القوميّة الذي برز في القرن التاسع عشر، مشدّداً على قوّة النزعة القومية في إسرائيل، لا سيّما وأنّها تنكر مبدأ الجنسية المدنية وتستعيض عنها بجنسية «يهودية» تحدّد انتماء قومياً لا انتماء دينياً. ويشير الكاتب إلى أنّ فلسطينيي الداخل محرومون من هذا الانتماء، لأنّهم لم يولدوا من أمٍّ يهودية، فضلاً عن أنّ الحركة الصهيونية استخدمت التوراة كصك ملكيّة لاحتلال فلسطين وتهويدها.

ويرمي ساند في هذا الكتاب أساساً إلى دحض مفهوم اليهودية العلمانية الذي كرّسته الصهيونية، إلى جانب تفنيد مفهوم الانتماء الإثني الواحد لليهود. وفي هذا السياق يشدّد على أنه لا وجود قطّ لـ «ثقافة يهودية علمانية»، نظراً إلى غياب أي لغة مشتركة أو نمط حياة مشترك بين اليهود العلمانيين، وانعدام أي أعمال فنية أو أدبية يهودية علمانية، على الرغم من أنه بالإمكان التعرّف على ملامح ثقافة علمانية يهودية في فكر كارل ماركس وألبرت أينشتاين وسيغموند فرويد مثلاً، غير أنّ هؤلاء عبّروا عنها انطلاقاً من ثقافاتهم الخاصّة، ولم يُرسوا أي أسس لـ «فكر يهودي علماني». ويرى أنّ التوفيق ما بين العلمانية والانتماء إلى اليهودية أمرٌ مستحيل، وقد ينطبق هذا الأمر على سائر الأديان أيضاً.

يستعرض ساند بعد ذلك أصول الديانة اليهودية والجذور التاريخية لـ «رهاب اليهود» في أوروبا، ثم يتوقف عند الممارسات العنصرية في إسرائيل ضدّ العرب الفلسطينيين على وجه الخصوص، وعند موجات التهويد التي لا تنبع من إيمان ديني راسخ، بل تهدف إلى الوقوف في وجه الفلسطينيين لأنّ «المرء كي يكون يهودياً في إسرائيل، عليه قبل أي شيء ألّا يكون عربيّاً». ويتساءل: في ظل هكذا ظروف، كيف يستطيع شخصٌ ليس مؤمناً متديّناً، بل إنسانوي ديمقراطي أو ليبرالي يتمتّع بحدٍّ أدنى من النزاهة، أن يستمرّ بالتعريف عن نفسه على أنّه يهودي؟.

كما أنه يعرض الصور النمطية التي أحاط اليهود أنفسهم بها، وفي مقدمها أنّ لديهم صفات خاصّة متوارثة لا يتمتّع بها أي شعب آخر.

ويقارن اليهودي في إسرائيل بنماذج بشرية عنصرية سابقة مثل المستوطن الأوروبي الأبيض في جنوب إفريقيا، مشيراً إلى مفارقة كامنة في أنّ إسرائيل أصبحت مرجعاً لأغلبية التيارات

اليمينية المتطرّفة التي كانت تحمل راية معاداة الساميّة في السابق.

ويندّد ساند بعنصرية إسرائيل اليهودية مؤكداً أنه واع جيداً لحقيقة كونه يعيش في واحد من أكثر المجتمعات عنصرية القائمة في العالم الغربي، لافتاً إلى أن العنصرية موجودة في كل مكان تقريبا لكنها في إسرائيل غدت بنيوية بروح القوانين التي جرى ويجري سنّها، وتُدرّس في جهاز التربية والتعليم، ومنتشرة في وسائل الإعلام، والأمر المروّع أكثر من أي شيء أن العنصريين فيها لا يعرفون أنهم كذلك ولا يشعرون أبداً بوجوب الاعتذار.

ولا يكتفي ساند بالتشخيص بل يتعدّى ذلك إلى محاولة استشراف البديل المشتهى. يشير في هذا الشأن إلى أنه على الرغم من أنه ما عاد بإمكانه أن يتحمّل العيش في مجتمع عنصري ومتقوقع كهذا، إلا إنه لن يكون أقل صعوبة بالنسبة له أن يسكن في مكان آخر، كونه جزءاً من المنتج الثقافي واللغوي وحتى العقلي للمشروع الصهيوني، ولا يمكنه أن يتهرّب من ذلك.

ويؤكد: «أنا إسرائيلي، سواء بصيرورتي اليومية أو بثقافتي الأساسية. ولا أعتز بذلك بشكل خاص... وحتى أنني في أحيان متقاربة جدا أخجل بإسرائيل، وخاصة في لحظات ذروة أدائها العسكري عديم الرحمة تجاه الضعفاء معدومي الحماية الذين لا ينتمون إلى الشعب المختار».

ويشير إلى أن حلمه غير الواقعي الآخذ في التلاشي هو أن يشعر «الفلسطيني - الإسرائيلي» في تل أبيب مثلما يشعر اليهودي - الأميركي في نيويورك على الأقل، وإلى أنه تمنى أن يحظى الأولاد الإسرائيليون الذين ولدوا لمهاجرة إفريقية - مسيحية بالتعامل نفسه الذي يُمنح في لندن للأولاد البريطانيين الذين ولدوا لمهاجرة هندوسية من شبه القارة الهندية، وأمل من كل قلبه بإقامة مدارس مشتركة لجميع التلامذة الإسرائيليين، لكنه يدرك الآن أن حلمه هذا كان طموحاً أكثر مما ينبغي، وأن مطالبه كانت مبالغة ووقحة، ومجرد طرحها اعتبر وما زال يعتبر بنظر الصهيونيين ومؤيديهم مساساً بالطابع اليهودي لدولة إسرائيل، وبالتالي معاد للسامية.

لكن ورغم أن هذا يمكن أن يبدو غريبا، فإنه خلافاً للهوية اليهودية العلمانية المغلقة إلا أن الإسرائيلية، كونها ظاهرة سياسية - ثقافية وليست «إثنية»، تحتوي برأيه على قدرة كامنة

لهوية مفتوحة وشاملة بالإمكان الانضمام إليها.

وفي قراءته، بالإمكان بموجب القانون أن تكون مواطنا إسرائيليا من دون أن تكون يهوديا «إثنياً» علمانيا، وبالإمكان المشاركة في الثقافة الرفيعة وإلى جانب ذلك الحفاظ على ثقافة ثانوية، وبالإمكان التحدث باللغة المهيمنة وفي موازاة ذلك تنمية لغات ثانوية، وإتباع أنماط حياة متنوعة وصهر أجزاء منها سوية. وواضح أنه من أجل تطبيق هذه القدرة الكامنة السياسية الجمهورانية بكاملها، فإنه كان جديراً التنازل عن الانغلاق القبلي منذ فترة طويلة، وتعلم احترام الآخر، وتقبله كمتساو وتغيير قوانين الأساس الإسرائيلية من أجل ملاءمتها مع مبادئ الديمقراطية. وقبل كل هذا، وقبل طرح أفكار حول تغيير سياسة الهويات الإسرائيلية، كان يتعيّن منذ وقت طويل التحرّر من الاحتلال الطويل الذي يودي بإسرائيل إلى التهلكة.

وهو يقرّ بأن حلمه حول إنهاء الاحتلال وإقامة كونفدرالية بين جمهورية إسرائيلية وجمهورية فلسطينية، كان على ما يبدو وهماً لم يأخذ بالحسبان بصورة كافية ميزان القوى بين الجانبين.

عند هذا الحدّ، لا بُدّ من أن نلفت إلى عدد من المسائل المهمة في هذا الكتاب:

أولاً، يشير ساند إلى أنه على خلاف التفكير السائد، لا يُعزى استمرار التشريع الديني المضاد للّيبرالية في إسرائيل إلى القوة الانتخابية التي يتمتّع بها المتديّنون، بل إلى الشكوك التي تحوم حول الهوية الوطنية العلمانية وإرادة الحفاظ على نزعة الاستعراق اليهودية. فإسرائيل لم تظهر يوماً على أنّها ثيوقراطية حاخامية، وما زالت منذ إقامتها عبارة عن إثنوقراطية صهيونية. ولطالما واجهت هذه الإثنوقراطية مسألة في غاية الأهمية: فهي تعرّف نفسها على أنّها «دولة يهودية»، أو حتى «دولة الشعب اليهودي» من أنحاء العالم كافة، غير أنّها عاجزة عن تحديد من هو يهودي. وإن المحاولات التي أُجريت في خمسينيات القرن الفائت لتحديد العرق اليهودي من خلال البصمة، أو الاختبارات حديثة العهد الرامية إلى تمييز حمض نووي يهودي، باءت كلّها بالفشل. وعبثاً حاول بعض العلماء الصهيونيين في إسرائيل وخارجها الإعلان عن «نقاوة وراثية» حافظ عليها اليهود على مرّ الأجيال، إلا إنّهم لم ينجحوا حتى الآن في تمييز اليهودي استناداً إلى نموذج من الحمض النووي.

ثانياً، ينوّه الكاتب بأنه على الرغم من أن الزعيم النازي أدولف هتلر قد مُني بهزيمة عسكرية وسياسية في إبان الحرب العالمية الثانية، فإن جوهر أيديولوجيته الشاذة والفاسدة حول اليهود كـ «إثنوس» عاد، في غضون أعوام غير كثيرة، ليطفو مرة أخرى فوق السطح.

وفي هذه المقولة ما يحيل إلى مقاربة يتم تداولها بين أوساط نخب إسرائيلية في الآونة الأخيرة ومؤداها أن هتلر انتصر، بداية من جراء تكرّس جوهر أيديولوجيته هذه، ومن ثمّ بمجرّد أن أصبح وجود المحرقة النازية طاغياً على كل شيء في كينونة إسرائيل الراهنة إلى درجة الشعور بأن الصدمة النفسية التي أحدثتها المحرقة أشبه بمرض عضال يستحيل معالجته أو الإبراء منه.

ثالثاً، برأي الكاتب بات من شبه المؤكد أن الشرق الأوسط الآن هو المكان الأخطر بالنسبة لأولئك الذين يرون أنفسهم بأنهم يهود، ويعود أحد أسباب هذا الخطر الدائم من ضمن أسباب أخرى إلى حقيقة أن الصهيونية تنكر وجود شعب إسرائيلي، وتعزله عن محيطه، وترى فيه طليعياً فقط لغاية الاستيطان الذي يجب أن يستمر إلى الأبد، وتتطلع دائما إلى توسيع حيزاته الإقليمية، وتفضل تغليفه بأيديولوجيا استعراقية منعزلة ومتقوقعة وانطوائية. وهو يذهب أبعد من ذلك ويصف إسرائيل بأنها «مملكة صليبية» جديدة وكيلة العالم الغربي في قلب الشرق، مؤكداً أن مستقبلها يكتنفه الشك.

لا شك في أن الكاتب يتعامل بهذه المقاربة مع إحدى المشكلات الأساسية التي تلازم إسرائيل منذ إقامتها، وهي موقعها داخل المشرق العربي. ومعروف أنه تتعزّز بين عدد من النُخب الإسرائيلية المقاربة التي ترى أن الثقافة السائدة في إسرائيل رنت ببصرها منذ البداية نحو الغرب، بيد أن هذا الغرب، كدأبـه دائماً، يكيل وجود إسرائيل، كما هو أيضاً بالنسبة إلى وجود دول أخرى، بميزان الربح الاقتصادي والجدوى الإستراتيجية. فالمستوطنون الغربيون في الجزائر وزيمبابوي وجنوب إفريقيا راكموا سنوات أقدمية أطول بكثير من سنوات الاستيطان الصهيوني في فلسطين، بل إن سيطرة البيض في جنوب إفريقيا تطورت لتتحول إلى قوة ملفتة، لكن حين تغيّر سلم الأولويات في العالم، تبيّـن أن الجدار الغربي الداعم ما هو إلا وهـم زائل لا أكثر.

ووفقاً لهذه المقاربة فإن إسرائيل من الناحية العملية هي نتاج استعطاف يهودي تقليدي، وحين قام آباء ومؤسسو الصهيونية في أوروبا بحشد التأييد لفكرة إقامة دولة يهودية، تذرعوا بحجة أن الكيان المزمع إقامته سينشر في الشرق الأوسط المتخلف ثقافة أوروبية متطورة. وهذا التوجه رسخ في الوعي الإسرائيلي، إذ ما زالت أوروبا حتى يومنا هذا هي «القبلة» الروحية بالنسبة إلى جزء كبير من المثقفين الإسرائيليين، وخصوصاً بالنسبة إلى عدد من الأدباء والكتاب الذي يعتبرون من صنّاع الرأي العام.

وفي نظر بعض هذه النُخب، فإن ذلك يمثل أحد النزاعات الداخلية الأكثر عمقاً في نطاق «الفكرة الصهيونية». فلقد انبثقت الأيديولوجيا الصهيونية على أرضية اللاسامية في أوروبا ذاتها، ومع ذلك تطوّع آباء الصهيونية ليكونوا وكلاء في الشرق الأوسط لتلك الثقافة التي نمّت ورعت رهاب اليهود، من هنا فإن الذين يتبنون هذا التوجه ينظرون إلى حقب اللاسامية وطرد اليهود من أسبانيا وفظائع ألمانيا النازية، كما لو أنها حدثت في كوكب آخر، وفي عصر خيالي، ونتيجة لعملية غسل دماغ ذاتية مستمرة. وتنتصب أوروبا الآن في وعي إسرائيليين كثيرين كمنارة ثقافية وكمصدر إلهام لمجتمع متنوّر، في حين تجاهل آباء الصهيونية فظائع الاحتلال الأوروبي في العالم العربي من الخليج إلى المحيط.

أخيراً، يعترف ساند أنه، ونتيجة لكل ما تقدّم، يغرق في أحيان متقاربة في سوداوية تبكي على الحاضر ويتملكها الهلع من المستقبل. ويشعر أن أوراق الحكمة الأخيرة آخذة بالتساقط بسبب أداء المؤسسة السياسية الإسرائيلية، فيما لا تزال البلاد والمنطقة معرّضتين لنزوات سحرة قبيلة مسرنمين متقوقعين على نفسهم.

معه حق.

كيف لم أعد يهودياً؟

وفقاً لمفاهيم المعاناة وخلافا للماضي، أقدّر بأن الوضعيات المتطرفة للإنسان ليست وضعيات يهودية.

رومان غاري، «اليهودية ليست قضية دم»، ١٩٧٠

التبحّر في التفاصيل

ستبدو المسألة المركزية المطروحة في هذا الكتاب في أعين عدد غير قليل من القراء مسألة غير شرعية، بل ومستفزة. وسوف يرفضها علمانيون كثر من بين أولئك الذين يصرّون على تعريف أنفسهم كيهود رفضاً باتاً. وسيعتبرني آخرون خائنا نتنا يكره نفسه. أما المصابون برهاب اليهود على نحو مثابر فقد اعتبروها توجساً غير محتمل بل ووقح، لأن اليهودي في عرفهم هو دائماً من عِرق آخر مختلف. سيدّعون في كلتا المجموعتين بأن اليهودي هو يهودي وبأن لا طريق ولا وسيلة إجمالا للتهرب من هوية فُطر الإنسان عليها وبها. وتعتبر اليهودية في كلتا الحالتين، جوهراً ثابتاً ومتماسكاً لا سبيل إلى تغييره قطّ.

لا أغالي حين أقول إن قراءة الصحف والمجلات والكتب، في بدايات القرن الحادي والعشرين، تبيّن في كثير من الأحيان، أن لليهودي سمات شخصية خلقية أو خلايا دماغ فارقة تميزه عن بني البشر الآخرين، تماما مثل الصباغ الخاصة التي تميز الإفريقي عن الأوروبي في لون بشرته. وكما أن «الزنجي لا يستطيع تغيير جلده، وأن النمر لا يستطيع تغيير رقطه»، كذلك فإن اليهودي لن يستطيع تبديل جوهره.

فكم بالحري وأنا أعيش في دولة يعرّف سجلّ الأحوال المدنية فيها قوميتي بأنها يهودية، بل إنها (الدولة) تعرّف نفسها بأنها دولة «القومية اليهودية». أي أن مؤسسي الدولة ومشرّعيها يعتبرونها مُلكاً جماعياً لـ«يهود العالم»، مؤمنين كانوا أم غير مؤمنين، وليس تجسيدا مؤسساتيا للسيادة الديمقراطية للكيان المدني القائم فيها. أكثر من هذا، فإن دولة إسرائيل تعرّفني بأنني يهودي، لا لأنني أتحدث لغة يهودية، وأنشد أغاني يهودية، وأتناول أطعمة يهودية، وأكتب كتبا يهودية، أو أقوم بنشاط يهودي ما. إنني يهودي، في نظرها، لأنها فتشت جيدا في أصولي

فوجدت أنني وُلدت لأم يهودية، وهي كانت يهودية لأن جدتي اعتُبِرَت يهودية، بفضل جدّة جدتي، وهكذا على طول سلسلة طويلة من الأجيال المتعاقبة.

لو كان والدي فقط يهوديا، بينما كانت والدتي - في نظر القانون الإسرائيلي - من «الأغيار» (الغوييم)، لكانت السلطات المعنية في إسرائيل قد اعتبرت قوميتي نمساوية، نظراً إلى أنني ولدت، صدفة، في معسكر صغير للمهجّرين في مدينة لينتز، بعد الحرب العالمية الثانية. صحيح أنني كنت سأحصل، في مثل هذه الحالة، على مواطَنة (جنسية) إسرائيلية، لكن حقيقة أنني أتحدث، وأحلم، وأشتم، وأدرّس وأكتب بالعبرية، وأنني درَست في مدارس إسرائيلية حين كنت شاباً، لم تكن لتسعفني قـط، بل كنتُ سأعتَبَر، طوال حياتي كلها، ابنا شرعيا للأمة النمساوية.

وتم، لحسن الحظ أو لسوء الحظ - تبعا لزاوية النظر - اعتبار والدتي يهودية منذ لحظة وصولها إلى إسرائيل في نهاية العام ١٩٤٨ . وهكذا، تم تسجيلي يهوديا في بطاقة هويتي. وزيادة على هذا، ورغم ما يبدو في الأمر من تناقض، ليس في مقدوري التوقف عن أن أكون يهوديا. وفقاً لقوانين دولة إسرائيل، كما لقوانين الشريعة اليهودية أيضا، ليس الأمر باختياري على الإطلاق. يمكن فقط في حالة استثنائية ومتطرفة - أن أغيّر دیانتي - شطب «قوميتي» من سجلات دولة اليهود الرسمية.

تكمن المشكلة في أنني لست إنسانا يؤمن بقوة عليا. وباستثناء أزمة طفيفة في سن الثانية عشرة، لا أذكر أنني اعتقدت بأن الإنسان قد أوجد الله، أو العكس، وهو ما يبدو - في نظري - أحد الاختراعات الأكثر إشكالية، والأكثر إثارة، والأكثر دموية في تاريخ المجتمع البشري. ومن هنا، أشعر بأنني سأبقى مكبلا حتى مماتي في شرَك هويات أبله: لن أعتنق المسيحية - ليس فقط بسبب وحشية محاكم التفتيش والحملات الصليبية الدموية في الماضي، بل لأنني لا أومن أيضا بأن يسوع المسيح هو ابن الله. ولن أعتنق الإسلام - ليس فقط بسبب الشريعة التقليدية التي تبيح للرجل الزواج من أربع نساء، بينما لا تتمتع المرأة بمثل هذا الامتياز. إن السبب أكثر نثرية: لا أقبل محمد نبياً. كما أنني لن أصبح من أتباع الهندوسية، لأنني أرفض أي تقاليد تقدّس الفرق والطوائف، ولو بصورة غير مباشرة ومخفّفة. ولست قادرا على أن

أصبح بوذيا حتى، لأنه ليس في وسعي الترفع عن الموت، ولا أؤمن بتناسخ الأرواح.

أنا إنسان علماني وملحد، حتى لو كان من الصعب عليّ، بعقلي المحدود، سبر غور لا نهائية الكون مقابل نهائية الأحياء فيه، القصيرة والرهيبة. إن المبادئ، ولا أتردد في القول المعتقدات، التي كانت توجّه أفكاري ولا تزال، هي مركزية الإنسان. بكلمات أخرى أن بني البشر هم الذين يقفون في المركز، وليس أي قوى فوق طبيعية يفترض أنها توجّههم. تقول الديانات التوحيدية، سواء الأكثر ورعاً أو الأقل تعصباً، بجوهرية الإله ومركزيته، وتضع رغبة الإله ومقاصده فوق حياة الإنسان، وحاجاته، وتطلعاته، وأحلامه ومواطن ضعفه.

كم من الغرابة والسخرية يمكن أن يكون في التاريخ الحديث! فكما أرغمت القومية الإثنو- دينية الفتية هاينريش هاينه (Heine) على اعتناق المسيحية، في مطلع القرن التاسع عشر، كي يتم اعتباره ألمانياً، وكما رفضت القومية البولندية، في ثلاثينيات القرن الفائت، الاعتراف بوالدي كبولندي كامل طالما لم يصبح كاثوليكيا، كذلك يرفض الصهيونيون في بداية القرن الحادي والعشرين، في إسرائيل وخارجها، رفضا باتا، الاعتراف بقومية إسرائيلية مدنية، ولا يعترفون سوى بالقومية اليهودية التي لا يمكن الانضمام إليها سوى بطريقة واحدة ووحيدة، شاقة ومضنية، من خلال إجراء ديني ـ من يرغب في اعتبار دولة إسرائيل دولته القومية لزام عليه أن يكون ابنا لأم يهودية أو الخضوع لإجراءات التهوّد، الطويلة والمؤلمة، وفق أحكام الشريعة اليهودية، حتى لو كان علمانيا وملحدا خالصا.

إن التزوير وعدم الاستقامة والتبجح ـ صفات محفورة عميقا في جميع أشكال تعريف اليهودية في دولة إسرائيل. وبالتزامن مع تأليف هذا الكتاب، توجه مهاجرون أفارقة يائسون (وصلوا إلى إسرائيل بحثا عن عمل)، آباء وأمهات لأطفال وُلدوا في إسرائيل وتعلّموا فيها، إلى الحاخامية الرئيسة طالبين التهوّد. لكن طلباتهم قوبلت بالرفض البات، ومن دون أي تبريرات أو تفسيرات زائدة ـ ذلك أنهم طلبوا الانضمام إلى «القومية اليهودية» كي يتجنبوا العودة إلى جهنم التي قدموا منها، وليس بسبب إيمان رباني يقرّ بأن اليهود هم شعب الله المختار.

يتحدث بعض طلابي في الجامعة، سكان إسرائيل من أصل فلسطيني، اللغة العبرية

بطلاقة، وكان يفترض اعتبارهم وفق القانون الإسرائيلي مواطنين إسرائيليين كاملين، لكن تعرّفهم لوائح وزارة الداخلية بأنهم «عرب»، وليس «إسرائيليين». ليست بطاقة التعريف هذه موضع اختيار بالنسبة إليهم وهم لا يستطيعون تغييرها. وأستطيع أن أتخيل الضجة التي كان يمكن أن تقوم في فرنسا، والولايات المتحدة، وإيطاليا، وألمانيا، أو في أي دولة ديمقراطية ليبرالية أخرى في العالم لو أن السلطات فيها أقدمت على إرغام مَن يعرّفون أنفسهم بأنهم يهود على حمل شارة تعريفهم في بطاقات هوياتهم، أو الإشارة إلى هذا التعريف في سجل الأحوال المدنية الرسمي.

إذا كان مفهوما بعد اليهودوسايد (إبادة اليهود) في إبان الحرب العالمية الثانية، سبب تعريف قرار الأمم المتحدة في العام ١٩٤٧ الدولة العتيدة كـ «يهودية»، وتسمية جارتها التي لم تقم «عربية»، فإن استخدام هذين التعبيرين في بداية القرن الحادي والعشرين يمثل مفارقة تاريخية إشكالية وخطرة، ذلك أن ٢٥ بالمئة من المواطنين الإسرائيليين ليسوا معرَّفين، طبقا للقانون، بأنهم يهود، بينما ٢٠ بالمئة منهم هم من أصول عربية. ومن هنا، فإن تعريف الدولة بـأنها «يهودية»، عوضا عن تعريفها بأنها «إسرائيلية»، ليس أنه لا يشملهم فحسب، بل أيضاً يقصيهم، على نحو صريح، من الجسم المدني الذي يفترض أن الدولة تقوم من أجله. وبذلك، فهو ليس تعريفا غير ديمقراطي فحسب، إنما أيضاً يشكل خطرا على مجرد وجود دولة إسرائيل وبقائها.

لكن، ليست سياسة الهويات غير الجمهورانية في دولة إسرائيل وحدها هي التي اضطرتني إلى تأليف هذا الكتاب القصير. صحيح أنها تمثل مسألة مركزية في الخطاب العام، وربما هي مسؤولة أيضا عن غير قليل من النبرات الحادة التي لجأت إليها أحيانا، لكن هذه السياسة لم تكن الدافع الوحيد وراء بلورة المضامين وتحديد أهداف الكتابة. وأودّ أن أضع موضع الاستفهام والتساؤل، في هذا الكتاب، جملة المسلمات والآراء المسبقة الراسخة عميقا ليس في الحيز الإسرائيلي العام فقط، بل في مراكز الإعلام العالمي أيضا. فمنذ زمن طويل، يراودني شعور بعدم الارتياح إزاء أشكال تعريف اليهودية التي استوطنت في صميم الثقافة الغربية خلال النصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين. ويبدو لي، أكثر

فأكثر، من زوايا معينة، أن هتلر قد انتصر في أعقاب الحرب العالمية الثانية. صحيح أنه مُني بهزيمة عسكرية وسياسية، لكن جوهر أيديولوجيته الشاذة والفاسدة عاد، في غضون أعوام غير كثيرة، ليطفو فوق السطح حتى أصبح ينبض اليوم بقوة، بل ويشكل خطرا جديا.

دعونا لا نرتكب خطأ. فليس رهاب اليهود الرهيب، الذي تدحرج إلى جينوسايد في نهاية المطاف، هو الذي يهدّدنا الآن. وليست الكراهية المَرَضيّة تجاه اليهود وذريتهم المُعَلمَنة هي التي انبعثت إلى الحياة في الثقافة الغربية. وفي الحقيقة، فإن اللاسامية السياسية ـ العلنية قد تراجعت بصورة جادة في أوساط العالم الليبرالي ـ الديمقراطي.[1] وبالرغم من صرخات دولة إسرائيل ومناصريها المؤيدين للصهيونية في «الشتات» ـ الذين يزعمون بأن العداء تجاه اليهود يتعاظم في كل لحظة، ويصنفون أي نقد للسياسة الإسرائيلية على أنه تآمر وتعدٍّ على «الدولة اليهودية» ـ من الحري التأكيد، منذ هذه اللحظة، على حقيقةٍ شكلت شرطا حاسما لمجرد تأليف هذا الكتاب.

ليس ثمة سياسي يستطيع اليوم، يشمل ذلك بعض الأماكن في أوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى أو في عالم الإسلام القومي الجديد، التعبير عن آراء معادية لليهود جهاراً، وليس ثمة صحيفة جادة لا تغربل حديث هراء لاساميًا، وليس ثمة دار نشر محترمة تطبع نتاج كاتب يحث على الكراهية العلنية ضد اليهود، مهما يكن لامعا، وليس ثمة محطة بث إذاعي أو تلفزيوني، رسمية أو خصوصية، تسمح لإذاعي معاد لليهود بإسماع صوته أو بالظهور على الشاشة. وإذا ما تسربت أقوال تحريضية معادية لليهود إلى وسائل الإعلام الجماهيرية، يتم كبتها وإسكاتها بسرعة ونجاعة فائقتين.

تلاشى رهاب اليهود الممتد منذ مئة عام، والذي تفشى في العالم الغربي منذ أواسط القرن التاسع عشر تقريبا وحتى منتصف القرن العشرين، وتبدد، وحسن أن هذا هو ما حصل. وبقيت في الهوامش فقط تلك الكراهية المبتذلة، بقايا من إرث الماضي، تختبئ من العلنية،

---

١ . تعبير «اللاسامية» يرد في هذا الكتاب، أحيانا، بصورة اضطرارية، رغم أن استخدامه يبدو في نظري زائفا وغير لائق إطلاقا: كارهو اليهود هم الذين أوجدوه، وتعبير «ساميّة» المشمول فيه يشكل، بالطبع، جزءا من مَفهَمَة عنصرية تفتقر إلى أي أساس تاريخي ـ ثقافي.

وتُقال همساً في صالونات مشكوك في أمرها، وتتزاحم وتحتفل أحيانا في المقابر ـ مكان يليق بها من جميع النواحي ـ وتجد لها، من حين إلى آخر، تعبيرا عنيفا مصدره نفر أبله وهامشي، لكنها تعتبر غير شرعية على الإطلاق بين الجمهور الواسع. وإن من يحاول إقران اللاسامية الهامشية الراهنة مع رهاب اليهود الهجومي الشرس في الماضي، يقزّم هول كراهية اليهود في الحضارة الغربية، سواء النصرانية أو الحديثة، التي سادت حتى النصف الثاني من القرن العشرين.

بيد أن النظر إلى اليهود بوصفهم شعبا عِرقيا تنتقل خصاله الغامضة بطريقة وراثية خفية لا يزال رائجا، ويتنامى ويزدهر. كانت تلك بالأمس خصالا فيزيولوجية بسيطة ـ الدم أو ملامح الوجه ـ بينما أصبحت اليوم «الـ «دي. إن. إيه» (الحمض النووي)، أو البديل «المخفف» لدى الأكثر اتزانا، الإيمان المطلق بتسلسل الأجيال المباشر. كان ذلك في الماضي البعيد خليطا من الخوف، والاحتقار، وكراهية الآخر، والجهل. أما اليوم، لدى «الأغيار ما بعد الهولوكوستيين»، فإننا نقف إزاء تكافل بين المخاوف، والضمير السيئ، والجهل، ونكتشف بين «اليهود الجدد»، في أحيان كثيرة، ضحوية، وحبا ذاتيا، وتبجحاً، ومرة أخرى... جهلا مزريا. وعليه، لم يبق أمامي سوى تأليف هذا الكتاب، في محاولة يائسة للتحرر من ربقة هوية جبرية، وعمياء ومُعمِية، تستبطن في أحشائها أخطارا على مستقبلي وعلى مستقبل جميع أعزائي.

***

ثمة علاقة وثيقة بين تعريف اليهود كـ «إثنوس» أو شعب ـ عرق أبدي وبين سياسة دولة إسرائيل، سواء حيال مواطنيها الذين لا يعتبرون يهودا، أو حيال مهاجري العمل الذين قدموا إليها يائسين من شواطئ بعيدة، أو - بالتأكيد - حيال جيرانها مسلوبي الحقوق الواقعين تحت احتلالها منذ نحو خمسين عاماً. من الصعب التنكر لحقيقة جارحة ومؤلمة: إن تنمية هوية يهودية جوهرانية، لا دينية، تشجع على التمسك بمواقف استعراقية (متمحورة حول العرق)، عنصرية أو شبه عنصرية، لدى أوساط عديدة واسعة، في إسرائيل وفي خارجها على حد سواء.

ويصبح مفهوما ضمنيا، حيال المآسي التي وقعت في النصف الأول من القرن العشرين،

ارتباط سلالات اليهود بإسرائيل. لا مجال لإنكار هذه الحقيقة ومن الغباء نقدها. لكن، وبالرغم عن أن هذا ليس مما يحتمه الواقع، ثمة علاقة وطيدة بين فهم اليهودية كهوية أبدية ولا تاريخانية وبين الدعم الجارف الذي يبديه جزء كبير ممن يعتبرون أنفسهم يهودا لسياسة الإقصاء البنيوية، التي ينطوي عليها مجرد تعريف دولة إسرائيل لذاتها، ولسلطة الاحتلال المتواصل في مناطقها الكولونيالية.

أنا لا أكتب للاساميين. إن هؤلاء، في نظري، هم جهلة مطبقون أو أشخاص مصابون بمرض لا براء منه. ومن الواضح لي، تماما، أنني لن أفلح في إقناع العنصريين الأكثر ثقافة من بينهم. إنني أكتب لجميع أولئك الذين يرغبون في التعرف على منابع الهوية اليهودية، بمختلف تحولاتها، وعلى أشكالها وأنماطها الحديثة وعلى الإسقاطات السياسية المترتبة على التعريفات المتعددة. ومن أجل هذا، سأنفض الغبار عن ذاكرتي الهشة لأكشف عن بعض المركّبات في سلسلة الهويات الشخصية التي اكتسبتها خلال مسيرة حياتي.

الهوية ليست طاقية

سأستهل، بغية توضيح طابع المنطلق النظري الذي أبدأ المسير منه، بطرفة معروفة: في مدرسة في إحدى ضواحي باريس، كان محمد الصغير يعتبر نابغة معجزة. لم يكن متمكناً من الحساب فقط، بل أيضاً من اللغة الفرنسية. وذات يوم، توجهت إليه معلمته بسؤال مباشر: «هل يزعجك أن أسميك، منذ اليوم، بيير؟». فالتمعت عينا الطفل فرحاً واستجاب على الفور لطلب معلمته بفيض من الحماسة. وحين عاد محمد/ بيير إلى بيته في اليوم ذاته، أمرته والدته: «محمد، إنزل إلى الحانوت واشترِ لي قنينتين من الحليب»! فردّ الطفل بأن اسمه، منذ اليوم، هو بيير وليس محمدا، رافضا تلبية طلب والدته. وفي المساء، عاد الوالد من عمله، جلس على الأريكة وطلب منه إحضار كأس من الماء. فرفض الطفل، مرة أخرى، معلنا أن اسمه ليس محمدا، بل بيير. غضب الوالد، ونهض من أريكته وصفع الطفل بقوة فجرح الخاتم الذي في خنصره وجه ابنه. وفي صباح اليوم التالي، حين دخل إلى غرفة الصف ورأته معلمته، بادرته بالسؤال: «آه بيير، من الذي جرحك في وجهك؟»، فردّ الطفل الصغير قائلاً: «العرب ضربوني»!

من الواضح أن هذه القصة القصيرة لا يرويها عرب بل فرنسيون. وعلاوة على ما تشف عنه، سلباً كان أم إيجاباً، حول طبيعة القومية الفرنسية «المنفتحة» ـ ليس في الإمكان، مثلا، استخدامها لتوصيف سياسة الهويات التفريقية في إسرائيل ـ ثمة فيها ما يستحثنا على التفكير ملياً في مصطلح الهوية، وفي التصوّر الذاتي الذي يتضمنه، وفي احتمال الأزماتية الذي ينطوي عليه، وفي بُعد الختلق والخيال الكامن فيه، وفي مجرد القدرة أو عدم القدرة على تغييره، وفي ارتباطه البارز بالآخرين.

ورغم مخاطرة الوقوع في الابتذال، ينبغي التذكير مرة أخرى: من المعروف أن لكل إنسان هوية ذاتية تتطلب من المحيطين الاعتراف بها، في مرحلة مبكرة جدا من حياته. فالأنا تخلق وتبلور لنفسها هويتها الخاصة، من خلال حوار دائم ومتواصل مع نظرة الآخر إليها. وحتى لو كانت الهوية نفسها تمثل، كما يبدو، حاجة نفسية وإدراكية ثابتة وغير تاريخانية مشتركة لجميع بني البشر، فإن بلورتها وتمثلاتها تتعلق ليس فقط بالمزايا البيولوجية الخِلقية (الجنس، الصباغ، الطول وما إلى ذلك) بل أيضاً بالظروف الخارجية، أي الاجتماعية.

والهوية مرهونة، على الدوام، بنوعية وجودة الممارسات التطبيقية التي يشارك فيها الإنسان وبأشكال تعلّقه بالآخرين. والإنسان يحمل الهوية ولا يستطيع العيش من دونها. وحتى لو لم تكن متوائمة، دائماً، مع نظرة الآخرين إليه، إلا إنها تشكل قاعدة لأنماط اتصاله بهم وتواصله معهم. إنه يطوّع نفسه وبيئته بواسطتها. إنها تساهم، باستمرار، في تحديد وتقرير مكانته في إطار المجموعة التي يعيش بينها، ومن الواضح أنها تبلور بذلك، بالتالي وبصورة غير مباشرة، هوية المجموعة بمجملها. وتتعلق المحاور المركزية في كل هوية فردية بهوية المجموعة الجمعية، تماما كما تشكل الأخيرة، على نحو ما، كلاًّ إجمالياً لجزء حاسم من الهويات الشخصية الفردية، بل وشيئا ما أبعد منها أيضا، يتعلق بالعلاقة المتبادلة، بين المجموع وبين المجموعات الأخرى.

ليست الهوية طاقية أو معطفا. يمكن حمل بضع هويات معا وفي الوقت نفسه. ولكن خلافا للطاقيات أو المعاطف، من الصعب خلعها واستبدالها بأخرى، بسرعة - من هنا العبث الذي يرسم ابتسامة في قصة محمد/ بيير الصغير. قد يكون الإنسان مشغِّلا، أو عاملا أجيرا، ويكون في الوقت عينه ملحدا، ومتزوجا، وطويلا، وشابا، وغيره وغيره. تتعايش هذه الهويات مع بعضها البعض بدرجات قوة وتراتبية متعددة، تتداخل إحداها في الأخريات وتكمل بعضها بعضا. إن تشكيلة الهويات الفردية التي يكتسبها الإنسان الحديث خلال حياته، منذ طفولته وحتى الشيخوخة، وأشكال حضورها في حالات متغيرة، أو مساهمتها في صياغة النظام الاجتماعي أو زعزعته، غنية جدا ومتعددة ومثيرة. كما أن الحساسية الفائقة تجاه أي مساس بهذه الهوية أو تلك هي مسألة مهمة قمينة بالبحث. لكن هذه التوجهات الاجتماعية

ـ النفسية ليست موضوع هذا الكتاب، ويؤسفني أنني لا أستطيع الاستفاضة فيها.

أود هنا القفز إلى الموضوع المركزي الذي يشغلني. إذا كانت ثمة هويات تكمل بعضها البعض، وتتداخل وتتشابك مع بعضها البعض، فما من شك في أن ثمة أيضا هويات تقصي بعضها البعض وتلغيها. فليس في الإمكان إطلاقا، تقريبا، أن يكون الإنسان في الوقت ذاته ذكرا وأنثى، طويلا وقصيرا، مسنا وشابا، متزوجا وعازبا، وغير ذلك الكثير. وبالمثل، أيضا، من الصعب أن تكون مسلما ومسيحيا، كاثوليكيا وبروتستانتيا، يهوديا وبوذيا، حتى لو وُجدت معا بعض الصيغ الوسطية التكافلية، هنا وهناك في حالات استثنائية يتراجع فيها المعتقد الديني ويضعف.

وهكذا، أيضا، ليس من الممكن أن تكون في الوقت نفسه، خلال الأعوام المئة والخمسين الأخيرة، فرنسيا وألمانيا، بولنديا وروسياً، إيطالياً وإسبانياً، صينيا وفيتناميا، مغربيا وجزائريا. إن الهوية الدينية، في الماضي والحاضر، والهوية القومية في العصر الحديث، تشبهان، هما بالذات، الطاقيات والمعاطف التي لا يمكن ارتداء أكثر من واحد منها في الوقت نفسه. استدعت الديانة ـ التوحيدية لا الإشراكية التي سبقتها ـ وكذلك القومية ـ ليس المراحل الانتقالية من القومية البدئية أو حالات الهجرة أو الحساسيات ما بعد القومية ـ من الأفراد ومن المجموعة حصرية مطلقة، فلم يكن ممكنا تبني سوى واحدة فقط من بينها، في وقت محدد. وهذا، ضمن أشياء أخرى، هو أحد مصادر قوتها العظيمة.

وفرت الهويات الدينية في العالم ما قبل الحديث، على مدى مئات عديدة من السنين، معاني وتفسيرات لظواهر طبيعية واجتماعية غير قليلة كانت عديمة المعنى بدونها. كما منحت الحياة، أيضا، هالة النصر، من خلال العالم الآخر وتناسخ الأرواح، وأتاحت التغلب على نهائيتها غير المفهومة. وطلبت الكنائس المختلفة لقاء هذه الخدمة الناجعة والمستمرة، ليس مقابلا ماديا فقط، بل إيمانا مطلقا، أيضا، بالحقيقة التي عرضتها ضمن هذه الصفقة. وقد عززت هذه الحقيقة موقف الإنسان المؤمن، ودمجته في مجموعة هوياتية واضحة فوفرت لحياته، بذلك، نظاما وأمنا، لا معنى ومغزى فحسب. وعلاوة على تعريف نفسه كفلاح أو حداد، كتاجر أو بائع متجول، كنبيل أو عبد، أدرك الإنسان أنه مسيحي، يهودي، مسلم، هندوسي، بوذي

وما شابه. لم يكن ثمة أشخاص لم يحملوا هوية دينية أو أخرى، كما لم يكن من الممكن أن يكون إنسان ـ في الماضي غير البعيد ـ من دون إله ما.

ساهم اتساع وعي الإنسان ومعرفته بالطبيعة، وبمنتجاتها، وبظواهرها ونزواتها، إلى جانب سبر غور غير قليل من ثناياها الخفية وأسرارها المشفرة في «ماهية الأشياء»، في تعزيز الشك الجادّ في عظمة الإله القادر على كل شيء وفي شرعية شعبية وكلائه المعتمدين على الأرض. وقد حدث تراجع الديانات التقليدية والمأسسة، في حيزات واسعة على وجه الكرة الأرضية ـ تراجعها، لا اختفاؤها ـ بالتزامن مع تشكُّل هوية جمعية جديدة أخذت تضطلع بجزء من الأدوار الأساسية في ضبط الحياة الاجتماعية، وتنظيمها ورفدها بالمعاني والدلالات. وفي إطار تنامي اقتصاد السوق واتساعه، الذي وصل ذروته في الثورة الصناعية وفي عصر الإمبريالية، في أعقاب عملية التحديث الهائلة في وسائل الاتصال الإنسانية ـ من الطباعة حتى الإذاعة والتلفزيون ـ ومع التغيرات الحادة في بنية العلاقات الطبقية، ظهرت الهوية القومية بوصفها لاقطة البرق الأساسية في خضم العواصف العقلية العظيمة التي شهدها العصر الحديث.

إن هذه الهوية الجمعية الجديدة كانت ضرورية جدا، نظرا لأسباب متنوعة. ويمكن من بين أبرزها وأهمها، الإشارة إلى الحركية الأفقية (في التمدين) والعمودية (في التراتبية الاجتماعية)، وبطبيعة الحال توزيع العمل الآخذ في التشظي والمحتاج إلى ثقافة جماهيرية عامة متجانسة كشرط لوجوده وأدائه. وقد تولت الدولة القومية مهمة مراقبة عملية تأميم الجماهير والإشراف عليها، وهي عملية لم يكن متيسرا تحققها من دون هذه الدولة. وفي موازاة الاتكاء الناجع على وسائل الاتصال العامة والخاصة، بقيت ذراعا الدولة القويتان منذ نهاية القرن التاسع عشر: جهاز التعليم الإلزامي ومنتجاته التربوية ـ القومية وواجب الخدمة العسكرية وأهدافها العسكرية ـ القومية.

وقد أحسنت القومية الجديدة استغلال الهوية الدينية التي سبقتها. فقد سرقت، أحيانا، رموزها، بل وجزءا من شعائرها وطقوسها، بصورة علنية، ووضعتها نقطة انطلاق ارتكازية في عملية تشكيل الهوية الجمعية الجديدة. وقامت، في أحيان أخرى، بـ «علمنتها» تماما، من

خلال إيجاد مصطلحات، ورموز وبيارق جديدة، لكنها تتكئ على ماض ميثولوجي سحيق، بل وثني أحيانا. وقد كانت، من زوايا مختلفة، أضعف من سابقتها، وخاصة في مجالات ميتافيزيقا الروح، بينما كانت أقوى، من زوايا أخرى، وخاصة في حجم التحشيد الشعبي وفي الشعور بالمساواة في ملكية الوطن، الذي منحته لأتباعها ومريديها. وكان الفارق الأساس بين الهوية الدينية والهوية القومية الجديدة كامنا في فهم السيادة: بالنسبة للمؤمن الديني الـ «الأصيل»، بقي السيد صاحب الأمر والنهي خارجيا عن هويته الذاتية، على الدوام. أما بالنسبة للمؤمن القومي، فقد شملت الهوية أيضا شعوره بالسيادة على نفسه. وبدلا من سيد العالم السابق، أصبحت القومية هي السيد على تصرفاته والمسؤول عن أفعاله، فأصبحت ـ لذلك ـ عنوانا رئيسا للسجود.

إن كُلّيَّانية الهوية القومية خلال القرنين الأخيرين مذهلة في قوتها. لقد دفعت بالملايين إلى الموت دفاعا عن وطنهم، أو عن توسعته، وحددت لكثر من هؤلاء لغتهم وأنماط حياتهم وغرست فيهم مشاعر التضامن الجماعي، الواسع والشعبي، التي لم تكن معروفة من قبل في التاريخ.

أما التاريخ نفسه، فقد أممته وواءمته للراهن الوطني اليومي. وعالم التخيّل القومي نُقل إلينا، على الدوام، كقصة طويلة. وتحولت أساطير، وحكايات خرافية، وخرافات جزئية ومتشظية عن قبائل، ومجموعات دينية وممالك، إلى سرديات طويلة ومتتابعة عن شعوب متخيَّلة كأنها كانت قائمة منذ بدء الخليقة. وشكلت قرائن مجزوءة ومتقطعة ومشوشة قاعدة وهمية لترسيخ تتابع لزمان ميثولوجي يقف في بداية تشكل الأمة.

يمكن القول حتى إنه من دون القومية لم يكن موضوع التاريخ الذي اعتاش منه أنا منذ سنين عديدة، ليحظى بمثل هذه الدراسة المثابرة، من مرحلة مبكرة في التعليم الابتدائي وحتى نهاية التعليم الثانوي. ففي الدول الديمقراطية الليبرالية، كما في الدول الديمقراطية التوتاليتارية أيضا، لزام على كل طالب أن يردد ويحفظ تاريخ «شعبه». إن كليو، إلهة التاريخ، أصبحت إلهة أعلى سجد أمامها العصريون، بغية لحم وتمتين هويتهم الجمعية وبغية تثبيت إيمانهم بممثلي القومية المنتخبين على السواء.

انتقل جزء ضئيل من ذراري اليهود، في نهاية القرن التاسع عشر، وردا على تصنيفهم العرقي المتزايد من طرف اللاساميين، إلى التأميم، بل وإلى التصنيف العرقي الذاتي. وقد دبّ هذا التأميم الحياة في أساطير وملاحم قديمة، كما شق الطريق أمام ظهور هويات علمانية من صنف جديد. فغطاء الرأس، والتاليت (شال الصلاة لدى اليهود المتدينين)، واللحية لدى الرجال، والعمرة والشعر المستعار لدى النساء - اختفت كلها، تقريبا، وبدلا منها ظهر في النصف الثاني من القرن العشرين، «اليهود الإثنيون». وأصبح بعض هؤلاء اليهود الجدد من أتباع الصهيونية ومريديها. وتبنى آخرون منهم وجهة النظر الجوهرانية لدى كارهيهم من غير أن يتحولوا، بالضرورة، إلى أتباع للقومية اليهودية.

ولئن كان اليهودي في الماضي غير البعيد ورغم كل الملاحقات، إنساناً آمن بإله خاص ومتميّز، وطبّق بالتزام صارم جملة من الفروض، وتبنى سلسلة من الصلوات، فإن التاريخ قدّم له مفاجآت مربكة ومضلّلة في سياسة الهويات الحديثة. فهو سيبقى يهودياً منذ الآن وإلى الأبد، سواء في أعين اللاساميين أو محبي اليهود، أو في أعين «اليهود الجدد»، ليس بفضل الممارسات والقواعد المعيارية الدينية التي يتشبث بها ويطبقها، إنه يعتبر يهوديا ليس بسبب ما يفعل وينتج ويفكر أو يقول، وإنما بسبب الجوهر الأبدي الكامن في شخصيته الفريدة والغامضة (وسيضيف علماء صهيونيون في إسرائيل وفي العالم، أيضا: الجينيّة، الوراثية). وسأحاول، فيما يلي، الوقوف على الأسباب التي أدت إلى ذلك.

ثقافة يهودية علمانية؟

إن بداية التساؤلات - ومثل كل البدايات فهذه أيضا لم تكن البداية الحقيقية - كانت في العام ٢٠٠١، في مطبخ فسيح في شقة تقع في الحيّ ١١ في باريس. ميشيل، صاحبة الشقة المتزوجة من صديق قريب لي، فاجأتني، في إحدى زياراتي إلى هناك، بالسؤال التالي: «قل لي يا شلومو، لماذا يُعرَّف زوجي، الذي لم يزر كنيساً بتاتاً، ولا يؤدي الصلوات في الأعياد اليهودية، ولا يضيء شموعا يوم السبت ولا يؤمن بوجود الله مطلقا - يُعرّف بأنه يهودي، بينما أنا، التي توقفت عن زيارة الكنائس منذ بلوغي سن الرشد وأصبحتُ علمانية خالصة، لا أعتبَر مسيحية أو كاثوليكية؟».

والحقيقة أن هذا السؤال المباشر وغير المتوقع فاجأني تماما. لكن، كعادتي، ترويّت أولا ثم حاولت إثبات عمق إطلاعي ومعرفتي بكل شيء. شرعت في الإجابة بانسيابية، رغم أنني لم أكن واثقا تماما من صحة الإجابة: «إن الهوية اليهودية، خلافا للهوية المسيحية، ليست مرتبطة بالإيمان بالله أو بالسجود له فقط. لقد غرز التاريخ مخالبه الحادة في اليهودي وحفر على وجهه مميزات تتعدى ثقافة التقاليد الشعائرية. وعززت ملاحقة اليهودي في العصر الحديث لديه هوية محددة من المطاردة والاختلاف التي ينبغي أخذها في الحسبان واحترامها». وانتهت المحادثة، بالطبع، بهتلر والنازيين، فكدّست بذلك، مستعينا بمعرفتي التاريخية، أكواما أخرى عالية من الحجج لتبرير تعريف صديقي كيهودي علماني، وربما - بالمناسبة وبطريقة خفية - لتثبيت هويتي أنا أيضا.

ورغم ذلك، فقد شعرت بعد انتهاء المحادثة بضيق ما غير واضح. لم أكن راضيا تماما عن حججي. كان ينقصها شيء ما لم أفهم كنهه في البداية ولم أستطع تحديده. ثمة فكرة ما، بدت

لي خطرة، زحفت واقتربت مني ثم أفلتت، مرة أخرى. تملكتني الحيرة أسابيع طويلة ولم أعثر على سبب واضح لتساؤلاتي وحيرتي المزعجة. فمن المعروف أن من السهل مواصلة التقوقع في آراء مسبقة ومريحة، واستنساخها مرة تلو أخرى في محادثات تافهة ومبتذلة، أكثر بكثير من الخوض في فحص صحة وحقيقة المصطلحات والهيكليات الأساس التي تشكل قاعدة تفكيرنا ومنطلقاته وفي النبش في منابعها ومصادرها. وكما قال مارتن هايدغر (Heidegger)، فإن الكلمات والمصطلحات تفكّر بنفسها من خلالنا، أكثر مما نفكّر نحن بها.

ما الخطأ، إذن، في أن ثمة يهودا علمانيين وملحدين؟ أليس ثمة شعب يهودي تعرض للتهجير واضطر للتجوال طيلة آلاف الأعوام؟ (كنت لا أزال أؤمن آنذاك بالأسطورة المسيحية ـ اليهودية حول «نفي الشعب اليهودي»). ألم يخلق تاريخ الملاحقات لدى اليهود كلهم حساسية استثنائية، وتصرفا أساسيا مشتركا وتضامنا مميزا؟ بل إن ثمة ثقافة يهودية علمانية قد عاشت وترعرعت، ظاهريا، في داخلها: ألم يكن كارل ماركس وسيغموند فرويد وألبرت آينشتاين منتجي ثقافة وعلوم يهودا؟ أليس هؤلاء، وكثيرون آخرون غيرهم، مصدر فخر واعتزاز لليهودي العلماني الحديث، كما كان يعيد أساتذتي وأصدقائي ويكررون خلال أعوام دراستي في المدارس؟

أخذت المسألة الأخيرة تعتمل في عقلي، أكثر فأكثر، مع مرور الوقت. من المؤكد أن ثمة هوية علمانية يهودية، تأسيسا على حقيقة وجود أشخاص يعرّفون أنفسهم بأنهم يهود، من دون أن يكونوا مؤمنين بوجود إله، ومن دون أن يمارسوا أيا من الشعائر أو التقاليد. ولا تزال المقولة الجازمة والدقيقة التي وضعها جان بول سارتر (Sartre)، بأن اللاسامي هو الذي يصنع اليهودي العلماني، صحيحة ونافذة، في رأيي. ذلك أن نظرة الآخر تساهم في تحديد هوية الشخص، ليس أقل من الوعي الذاتي الذي يحددها. وقد واصلت الاعتقاد بأنه طالما بقي اليهودي موجودا في نظر الآخر، «غير اليهودي»، فليس من الممكن إطلاقا شطب «الآخروية» اليهودية أو تجاهلها.

لكن، حين حاولت أن أستوضح لنفسي، بصدق وصراحة، ماهية الثقافة اليهودية العلمانية، تكشف لي فجأة أن مسألة التعريف ليست سهلة بالحد الذي كنت أتخيله، وأنني

أقف في مواجهة جبل ضخم من المسلمات. لا شك في وجود الثقافة الدينية الممتدة منذ أعوام طويلة جدا، على ملحقاتها الفولكلورية والمدهشة. صحيح أن التناخ يشكل قاعدة ثقافية ـ تاريخية لجميع الديانات التوحيدية الغربية (اليهودية، المسيحية والإسلام) وهو ليس «مُلكا» يهوديا، لكن «المِشناه»، و«التلمود»، و«سعاديا غاؤون»، و«الرامبام» ونتاجات جميع المفسرين الآخرين عبر مئات الأعوام، هي إبداعات يهودية لمبدعين يهود، على نحو أكيد. وحتى في العصر الحديث، أيضا، ظهر فكر يهودي جاد ومهم ـ بدءاً من موزس مندلسون، مرورا بهيرمان كوهين وفرانتز روزنتسفايغ ومارتن بوبر، وانتهاء بعمانوئيل ليفيناس، سعى مفكرون مختلفون إلى تطوير الفكر اليهودي وإعلاء شأنه، فحققوا إنجازات عظيمة. (ينبغي أن نذكر، أيضا، أنه بالرغم عن أصالة هذا الفكر، إلا أنه جاء من خلال التوليف والتوفيق مع فلسفات غير يهودية).[1]

لكن، ما هي الثقافة العينية التابعة لأولئك الذين يعرفون أنفسهم بأنهم يهود علمانيون وملحدون؟ هل لديهم لغة مشتركة، بما فيها من تعابير راقية ومتدنية؟ ذلك أن ثقافة الشعب هي، أولا وقبل أي شيء آخر، القدرة على استخدام اللغة ذاتها، وليس أقل من ذلك: معرفة الرموز الخاصة التي يتم التواصل بواسطتها. فأي نمط حياة خاص يميز اليهود العلمانيين؟ أين يتم اليوم إنتاج أعمال مسرحية أو سينمائية يهودية؟ لماذا لا يُكتَب شعر أو أدب أو فلسفة يهودية علمانية؟ هل ثمة آداب، لفتات ونكهات متميزة مشتركة لجميع، أو لمعظم، سلالات اليهود في العالم؟ أي، هل ثمة ثقافة يهودية علمانية منتجة تشكل غذاء روحيا، احتفاليا أو يوميا، لجميع أولئك الذين يعرفون أنفسهم بأنهم يهود في أنحاء العالم المختلفة؟ هل كانت ثمة مركبات يهودية، أصلا، في ثقافة وفكر كارل ماركس وسيغموند فرويد وألبرت آينشتاين؟

---

١ . لم أدرج شبينوزا ضمن هذه القائمة. فالمحاولة الساقطة، في إسرائيل وغيرها من مواقع في العالم، لتقييمه كمفكر يهودي، لا كفيلسوف ذي خلفية يهودية، هي محاولة مثيرة للخجل وتدل على الجوهرانية القبلية لدى أولئك الذين يصفون أنفسهم بأنهم يهود علمانيون. ولم يقتصر الأمر على أن الجاليات اليهودية قاطعت، في حينه، هذا المفكر الكبير وفرضت عليه حرمانا مطلقا، بل إنه هو ذاته لم يعتبر نفسه يهوديا ودرج على الكتابة عن اليهود بضمير الغائب. ورغم أنه كان يحمل في صغره اسم «باروخ»، إلا أنه لم يستخدمه إطلاقا، بل كان يوقع باسم «بنديكتوس» أو «بنديكت».

هل ساهم نقد رأس المال ونظرية اللاوعي والنظرية النسبية، على نحو ما، في بلورة ثقافة يهودية علمانية وتثبيتها؟

بما أن الإجابات عن هذه الأسئلة كلها هي بالسلب، فقد أيقنت أن هويتي اليهودية ـ العلمانية تقوم على أصْلي، أي على الماضي فقط لا غير، أو بدقة أكثر ـ على ذاكرته المتأصلة أساسا. أما الحاضر والمستقبل فغير قائمين، بصورة حقيقية، في الهوية اليهودية الجمعية التي حاولت الدفاع عنها في وصفي إياها بأنها حية ونشطة تتكئ على ثقافة عينية محددة. ليس ثمة أنماط حياة مشتركة لأولئك الذين يسَمّون يهودا علمانيين. وهم لا يشعرون، في هذه الفترة، بألم وفرح يوميين يربطانهم مع يهود علمانيين آخرين في أنحاء المعمورة. ليس ثمة روابط بينهم ولا هم يحلمون بلغة متميزة خاصة بهم. إنهم يعبرون عن أنفسهم، يبكون، يعتاشون ويبدعون بلغات وثقافات قومياتهم المختلفة.

لم يكتب الشاعر تريستان تزارا، الذي أثار الحماسة لديّ في فترة شبابي، بتمرده الدادائي، شعرا يهوديا، رغم أن اسمه الأصلي كان شموئيل روزنستوك. وهارولد بينتر، المسرحي وكاتب السيناريوهات الذي كان يسحرني دائما، كتب مسرحيات وسيناريوهات إنكليزية رائعة، وليست يهودية إطلاقا، رغم خلفيته اليهودية شرق الأوروبية. وأنتج ستانلي كوبريك، المخرج الأقرب إلى قلبي، أفلاما سينمائية أميركية جدا وعالمية، خلت من أي ذرة يهودية، على الرغم من أنه ولد لوالدين يهوديين. ولم يعرض هنري برغسون، الفيلسوف الذي واجهته في أطروحتي للقب الدكتوراه في المرة الأولى، على العالم فلسفة يهودية. ولم يبد مارك بلوخ، أحد كبار المؤرخين في القرن العشرين، والذي حاولت سرقة بعض الحِكَم والتقنيات السردية منه دون نجاح، أي اهتمام بالتاريخ اليهودي وبقي ملتزما، بكل قوة وبالكامل، بدراسة التاريخ الأوروبي فقط. وهل كان آرثر كستلر، الجريء والاستفزازي الذي ساعدني جدا في التخلص من أوهامي الشيوعية، كاتبا يهوديا؟ وهل من المحتمل أن سيرج غينزبورغ، الذي أعجبت به منذ مرحلة مبكرة، كان يكتب ويغني أغنيات يهودية، لا فرنسية، من دون أن يكشف ذلك ويعلنه قط؟

إن جميع هؤلاء الذين ذكرتهم هنا، وآخرين كثيرين غيرهم، كانت لكل منهم خلفية عائلية

يهودية معينة. هذه الخلفية هي المسؤولة، بصورة غير مباشرة بالطبع، عن كون عدد كبير نسبيا من وكلاء الثقافة والعلوم البارزين في العالم الغربي قد جاؤوا منها. شكلت الهامشية التي رزحت فيها الأقلية الدينية المضطهَدَة، المرتبطة، بغير اختيارها، بأعمال بسيطة، لا بالأرض، سنوات طويلة، نقطة انطلاق عظيمة نحو التفوق والامتياز والبروز في الحياة العصرية التي تحول عمادها الأساس، أكثر فأكثر، نحو إنتاج يقوم على الإشارات والرموز.

وثمة، أيضا، بقايا ماض يهودي، آخذ في الذوبان والتلاشي، لا تزال حاضرة بين منتجي الثقافة الذين يمكن وصفهم بـ «البوست يهود»، وهم كثيرون. ورغم أن فرانتز كافكا أراد، في فترة من حياته، تعلم اللغة العبرية، إلا إن إنتاجه، بكل وضوح، ليس يهوديا وليست فيه أي شخصيات يهودية، بصورة متعمدة تماما. ومع ذلك، يمكن العثور على عناصر من الغربة والقلق في قصصه، ويبدو أن حياة عائلته في أوروبا الوسطى، في ظل رهاب اليهود، قد ساهمت إلى حد بعيد في بلورتها على هذا النحو الفريد. وهكذا أيضا لدى وولتر بنيامين. فقد دفعه فضوله تجاه خلفيته اليهودية إلى الاهتمام، لبرهة، باللغة العبرية وبموسيقى «الكابالاه»، لكنه سرعان ما تبرأ منها واستحال ناقداً ثقافيا ألمانيا خالصا، بل ربما كان من الأفضل القول أوروبيا عاما، بفضل أعماله الأصيلة حول فرنسا. وبالرغم عن هذا، ثمة لديه أيضا بُعد مأساوي تكمن جذوره، ضمن أشياء أخرى، في خلفيته العائلية اليهودية.

ترددت أصداء عناصر الحساسية شرق ووسط الأوروبية، اليهودية والييديشية على حد سواء، أيضا في كتابات ستيفان تسفايغ، وإيران نميروفسكي، وسول بيلو، وفيليب روث وآخرين غيرهم. لكن، كما عاد وأكد الأخير الذي اتُّهِم باللاسامية أيضا، فقد كان يكتب دائما «الأميركية»، لا «اليهودية»، ويبدو جليا أن أحفاد شعب الييديش، الذين يلعبون أدوارا رئيسة في قصصه، هم الأخيرون من جيل آخذ في التلاشي.

لم يُنتج أي من المبدعين الذين ذكرتهم أعلاه ثقافة علمانية مشتركة لجميع سلالات اليهود، ولا حتى لأغلبيتهم. ويعرف كل مبتدئ في علم الأعراق البشرية أن الثقافة والحساسية تنتجان ليس فقط من إرث الآباء والأجداد، وليس فقط في ضوء الذاكرة القديمة وإشاراتها، بل من تجربة مشتركة وحيّة، بالأساس، بكل ما تحتوي عليه من أنماط اتصال وتعقيدات وتناقضات.

وبما أنه ليس ثمة نمط حياة يوميا محددا يوحّد العلمانيين من أصل يهودي في جميع أرجاء العالم، فليس في الإمكان الجزم بأن ثمة ثقافةً يهودية غير دينية قائمةٌ بالفعل، وليس أقل أهمية من هذا: ليس في الإمكان الجزم بأن ثمة مستقبلا مشتركا محتملا أيا كان، لبقاياها التي تبلورت في الماضي من خلال تقاليد الإيمان بالله التي تراجعت هي أيضا.

لا شك في أن علمانيين كثيرين من أصل يهودي، بل وملحدون خالصون حتى، لا يزالون يحتفلون بالأعياد ويقيمون شعائر مختلفة ترسخت عبر التاريخ الطويل من ممارسة الإيمان اليهودي. وهناك من يعلّمون أولادهم كيف يوقدون شموع عيد الأنوار (حانوكا) في منتصف الشتاء الطويل، بينما يشترك آخرون في مأدبة ليلة الفصح (العبري) في مطلع الربيع، بل وهناك من يزورون الكنيس، أحيانا، في أيام «الغفران» الخريفية. لكن، هل يستحق الفرنسيون العلمانيون، أو الألمان الملحدون، الذين يحتفلون بعيد ميلاد يسوع المسيح، ويزينون شجرة السرو في منازلهم، بل ويشترون الهدايا لأولادهم في هذه المناسبة، صفة مسيحيين؟ وهل يستحق الأميركيون الأغنوسيون من أصل يهودي الذين يعلقون شمعدان الشموع على شجرة الميلاد ذاتها صفة مسيحيين - يهود؟ إن ثيودور هرتسل مثلا، مؤسس الصهيونية السياسية في نهاية القرن التاسع عشر، كان يحتفل بعيد الأنوار بواسطة شجرة عيد الميلاد، ومن المعروف أنه لم يختن ابنه، فهل يفترض أن يُعتبر، على ضوء هذه الممارسة الفريدة، مسيحيا أم يهوديا؟ وربما كان مسيحيا «بعض الشيء» بينما اضطرته البيئة المعادية إلى تغيير هويته والتحول إلى «يهودي جديد»؟

إذا كان من المفترض أن تشكل الكُنُس والكنائس والمساجد أو المعابد ما يشبه المتاحف بالنسبة للأشخاص العلمانيين، فإن الأعياد والمناسبات والطقوس، في المقابل، هي مقومات ثقافية مهمة لم تتبدد قيمتها ولا يمكن التخلي عنها بسهولة. إنها تكسر رتابة الحياة المتواصلة، وتوحّدنا للحظة مع عائلاتنا الآخذة في الابتعاد والتشقق، كما تعيد لنا ذكريات حزينة عن أقربائنا الذين فارقوا الحياة. لكن، لا يجوز حصر الثقافة في الحنين إلى الماضي أو في تذكّر وحفظ مراسم شعائرية مصدرها الدين. فهذه قد تشكل نقاط انطلاق لا يستهان بها في العملية المعقدة لتعريف أنفسنا، لكنها قد تشكل، أيضا، أسوارا قبيحة تفصلنا عن بيئتنا. وإذا كانت التقاليد

الدينية تُستَغل لحرمان الشباب من الاقتراب من الحب، وإذا كان يتم إقصاء آخرين يعيشون بين ظهرانينا والمسّ بهم بدافع الوفاء والاحترام لمعتقدات الآباء ومخاوفهم، فسنبقى إذن أسرى أبديين مكبلين، طوال حياتنا، بنقاط انطلاق توقف الزمان عندها. وسرعان ما تصبح مثل هذه النقاط أهدافا إخصائية، بل تهديدية. فالمجتمعات القومية التي تحسم رموزها الدينية ـ المجموعاتية حدود تعريفها لذاتها هي، بالتأكيد، مجتمعات غير ليبرالية وغير ديمقراطية.

***

اتضحت لي، رويدا رويدا، ماهية المسألة المثيرة للقلق: إن هويتي اليهودية تأسست، حتى الآن، على ماض ميت، فقط، وهي خاوية تماما تقريبا من حيث الحاضر الحيّ، الفاعل والمبدع المتجه نحو المستقبل. أي ماضٍ؟ ما هو هذا التاريخ؟ إن الطبقات الجيولوجية التي تلفّ ذلك الماضي ضرورية لفهم تطوّر هوية أولئك الذين يعرفون أنفسهم بأنهم يهود. ونظراً لضيق المجال سألقي بعض شِعاع الضوء المتقطعة والوامضة على هيكليات ماضوية يهودية وصهيونية.

ألم وزمان طويل

كنت في فرنسا، في أواخر العام ١٩٧٥، في إطار استكمال دراستي في التاريخ. والدي، الذي كان يقيم في تل أبيب منذ نهاية العام ١٩٤٨، غادر إسرائيل في ذلك العام، للمرة الأولى، لالتقاء شقيقه الذي كان يقيم في مونتريال. وقرر في الطريق، أن يعرّج لزيارتي في باريس. اصطحبته بغير قليل من الاعتزاز في جولة في مدينة الأنوار التي حظيت بالعيش فيها وأذكر أن الحظ حالفنا فكان الطقس، في تلك الأيام القليلة دافئا، ومع غروب الشمس أصبح الضوء ذهبيا مصفرّا.

توقف والدي فجأة في إحدى جولاتنا في أنحاء المدينة، وقال إنه يستطيع تحديد اليهود من بين المارة في الشوارع. سخرت منه قائلاً: «إنك تشكو على الدوام من أنك تعيش مع فائض من اليهود في دولة إسرائيل، فهل جئت تبحث عن يهود في باريس بالذات؟ لكن، كيف تستطيع أن تثبت لي أن الشخص الذي تحدده هو يهودي أصلا؟». وانضممنا في إحدى محطات حافلات الباص إلى الدور. ووقف إلى جانبنا رجل طويل القامة ذو شعر أبيض (بدا لي مسنا آنذاك) وعينين زرقاوين. اقترب والدي مني وهمس في أذني: إن الرجل يهودي. ولكي يثبت ذلك، طلب أن نتحدث باليديش بصوت عال، مفترِضا أن الشخص المعني سينضم إلى محادثتنا، بصورة طبيعية. وبصفتنا إسرائيليين، أو شرق أوسطيين «نموذجيين»، لم يكن صعبا علينا إصدار الضجة، لكن الهدف «اليهودي» لضجتنا هذه لم يلقِ بالاً إلينا قطعيا.

خلال السفر في حافلة الباص ـ جلسنا خلفه ـ كان والدي يحقق معي حول كل ساحة، بناية عمارة أو تمثال مما كنا نصادفه في طريقنا. وحين عبرنا إحدى الساحات، يبدو لي أنها كانت ساحة «فندوم»، سألني عن العمود المنتصب في مركزها. ورغم أنني كنت أعرف باريس

جيدا جدا، إلا إنني لم أعرف الإجابة. وفجأة، أدار «الفرنسي» الجالس أمامنا رأسه وشرح، باليديش، مصدر العمود. وقد تبين أنه جاء إلى فرنسا من رومانيا قبل الحرب العالمية الثانية. ولا زلت أذكر أنه كان يعمل مهندسا وكان يقيم في مونبارت.

تملكني الذهول. ولدى نزولنا من حافلة الباص، سارعت إلى مساءلة والدي كيف تعرّف عليه. «من عينيه»، قال. «ولكن عينيه زرقاوان»، قلت. «لا، لا أقصد شكلهما أو لونهما، بل نظرته». «أي نظرة؟»، سألت. قال: «نظرة متهربة وحزينة فيها خوف وتشكك عميقان. هكذا كان الجنود الألمان يتعرفون، أحيانا، على اليهود في بولندا المحتلة. لا تقلق، لم يعد هذا موجودا لدى الإسرائيليين الشبان»، لخص والدي هذه الحادثة الغريبة.

نظرت عميقا في داخل عينيه كما لم أفعل من قبل، إطلاقا، وعندها فقط، هكذا يبدو لي، بدأت أفهم قليلا مدى الحساسية التي تحفرها الهامشية المستمرة لزمان طويل في عقلية الإنسان. ومن نافل القول إن إسرائيليتي المكثفة وعديمة الصبر تجاهلت هذه الحساسية، تماما، حتى تلك اللحظة.

تبدو قصة العينين، وسط تاريخ من الألم، تاريخ من الملاحقات، تاريخ من الصمود والبقاء كمجموعة أقلية دينية في حضارة من المعتقدات المعادية والسيطرة، طويلة، أطوّل من إمكان سردها في هذا الإطار الضيق. لكن، قبل أن تسارعوا، أيتها القارئات والقراء، إلى الاستنتاج بأن بين أيديكم كتاباً آخر عن الضحوية اليهودية النموذجية النابعة من رغبة في خلق وإثارة شعور بالذنب لدى «الأغيار»، وجرف رأسمال وافر من الشفقة وتأنيب الضمير من خلال ذلك، عليّ أن أضيف عدة ملاحظات صغيرة وشريرة.

لم أندب، قط، الألم المنضفر في الزمان الماضي ولم أحلم، إطلاقا، في إصلاح المعاناة التي حملتها الأيام الغابرة. إنني أنتمي إلى أولئك الذين يودون تحديد، لجم، أو على الأقل تقليص الغبن الفائض القائم في الوقت الراهن. والملاحَقون والضحايا من الماضي قريبون إلى قلبي أقل بكثير من الملاحَقين اليوم أو من ضحايا الغد. وأعلم، جيدا، أن التاريخ يشكل، أحيانا كثيرة، حلبة تبادل بين الصيادين والطرائد، بين الأقوياء والضعفاء.

أدرك اليوم، كباحث وكأستاذ في التاريخ، أن اليهود لم يتعرضوا للملاحقة في كل الفترات وفي كل الأماكن، وبالطبع ليس بتلك القوة أو الوتيرة. إن يهود بابل في العصرين الفارسي والهيلينستي، والمتهوّدين في الممالك الكبيرة التي تم تهويدها، ويهود الأندلس في عصر الإسلام، ومجموعات أخرى عبر التاريخ، خاضوا تجارب حياتية أخرى ولم تكن ثمة شراكة مصير بينهم. ناهيك عن أن اليهود، في المواقع التي سيطروا عليها وحكموها ـ مملكة الحشمونائيم في القرن الثاني قبل الميلاد أو مملكة حمير المتهودة في جنوب شبه الجزيرة العربية في القرن الخامس الميلادي ـ تعاملوا مع الآخرين تماما كما تم التعامل معهم لاحقا في حيزات مستقبلية أخرى. لكن، في أوروبا العصور الوسطى، وخاصة في شرق القارة على عتبة العصر الحديث، وقع الملايين فريسة لنزعات الغربة والاغتراب وانعدام الأمن العميقة والمتواصلة التي لا يجوز القفز عنها أو المطالبة بنسيانها.

ينبغي كي نفهم هذا، أن نعود إلى الوراء، إلى عصور قديمة حقا مطوّقة بقرائن واهية وغامضة ليس من السهل الاهتداء إليها وتحديدها دائما. ففي البدء ظهر الإيمان التوحيدي بإله، يصعب تعريفه بأنه يهودي، آنذاك، والأكثر دقة وصفه بأنه «يهويستي». وقد بدأت ترتسم ملامحه، على ما يبدو، في القرن الخامس قبل الميلاد، بعد فترة من تهجير البابليين النخبة السياسية والكهنوتية من القدس. وفي ظل آثار هذه الهزة الاستثنائية، واللقاء مع الزرادشتية الفارسية، تبلورت أغلبية مخطوطات «التناخ» المثيرة. وفي القرن الثاني قبل الميلاد، كانت هذه الديانة الفتية قد أصبحت على درجة كافية من الثقة بنفسها للتمرد على الإمبراطورية الحاكمة وإقامة المملكة الثيوقراطية ـ التوحيدية الأولى في أرض يهودا، والتي ستقوم بتهويد كل رعاياها وجيرانها بالقوة.

أما الإيمان (المذهب) الثوري الجديد فسيظهر وسينتشر بواسطة شبكات الثقافة الهيلينستية، ثم من خلال قنوات الاتصال الرومانية حول البحر المتوسط. وبعد إخفاق ثوراته الثلاث ضد الوثنية، في نهاية القرن الأول الميلادي وبداية القرن الثاني، أخذ انقسامه إلى تيارين أساسيين في التعمق: اليهودية الحاخامية والمسيحية البولسية (نسبة إلى بولس). التيار الأول، المتواضع، سيهدي العالم «المشناه» و«التلمود»، بينما سيعرض التيار الثاني،

الأكثر فاعلية ونجاعة، العهد الجديد. وسيحقق هذا الأخير انتصارا كاسحا على الأول، غريمه، فيضعه تحت حصار تاريخي متواصل ومؤلم.

لم يكن الانغلاق اليهودي- خلافا للافتراض المتبع والمقبول- نتيجة مباشرة لدوغمائية اليهودية، على الرغم من أن بداياتها انطوت على أسس حصرية لهكذا انغلاق، وأن جزءا من أسفار «التناخ» يشكل شهادة مسبقة على ذلك. صحيح أن التوحيدية اليهويستية الأولى كانت متخوفة وغير واثقة بنفسها، لكن تعاظمها، اتساعها وتحولها إلى يهودية قادها، بالذات، إلى نزعة تبشيرية حازمة وناجعة فتم، بفضل ذلك كما يبدو، تكوين معظم الجاليات اليهودية في العالم. لم يكن التهديد المسيحي، ثم الإسلامي لاحقا، هو الذي أعادها إلى أسسها الفئوية، بل كان تقوقعها في داخل نفسها، بصورة أساسية، ثمرة محاولات الصمود والبقاء أمام الخطر الوجودي الدائم. وقد فرض الانتصار المسيحي في القرن الرابع الميلادي على اليهود الانغلاق على أنفسهم، بالقانون وبالقوة. وهكذا، انتهت فترة ازدهار التهوّد في منطقة البحر المتوسط وتراجعت، وتسرب نشاطها التبشيري إلى هوامش الحضارة المسيحية في العصور الوسطى. ثم عادت ولُجِمت ثانية مع تبلور الإسلام، (الديانة) الشقيقة الفتية للمسيحية، فبقيت منذ ذلك الوقت خاضعة لإرادة الآخرين الأقوياء ورغباتهم ونزواتهم.

هنا المكان، ربما، لعرض حقيقة تاريخية تثير شعورا بالضيق وعدم الارتياح لدى جميع أولئك المتباهين اليوم - بروح الموضة السائدة في الحواضر الغربية - بانتمائهم إلى الحضارة «اليهودية ـ المسيحية». إن وجود الجاليات اليهودية في كنف الإسلام لم يكن يشبه، قطعيا، مصيرها البائس في العالم الأوروبي. صحيح أن اليهودية اعتُبرت، في نظر الإسلام أيضا، ديانة وضيعة، ومعروفة جيدا حالات الملاحقة، لكنها بقيت في أعين أتباع محمد مذهبَ إيمان بالله، أكثر قِدَماً ومحتملا يحتاج، مثل المسيحية، إلى الحماية والرعاية في وجه الديانة المنتصرة والأكثر صحة وأحقية.

ولئن كان القرآن قد وصف اليهود بأنهم «أهل الكتاب» (سورة المائدة: ٥٩)، فإن العهد الجديد قد قال عنهم، قبل ذلك بكثير: « وَيَقَعُونَ بِفَمِ السَّيْفِ، وَيُسْبَوْنَ إِلَى جَمِيعِ الأُمَمِ» (إنجيل لوقا ٢١: ٢٤). فمنذ وضع الأناجيل، اعتُبِرَ اليهود في المسيحية، إجمالاً، أحفاد

قتلة يسوع الذين اقتُلِعوا من القدس بقوة الذراع. ولم تكن المسيحية في أغلبية مراحلها، وفي جزء كبير من تفرعاتها وملحقاتها، الروحانية والعنفية، مستعدة للاعتراف باليهودية ديانةً شرعية منافِسة. ثمة إسرائيل حقيقية (Verus Israel) واحدة فقط لا اثنتان، ولا ثلاث بالتأكيد. وقد رفضت، مبدئيا، مجرد احتمال وجود ديانة توحيدية، سواء أكانت يهودية أم إسلامية، تستحق الوجود الموازي لوجودها هي. (ولذلك، أيضا، لم تبق في نهاية العصور الوسطى جاليات إسلامية في أوروبا، مقابل جاليات مسيحية واصلت البقاء والعيش تحت حكم الإسلام).

في المسيحية، حقيقة أن اليهود قد يكونون مؤمنين فضّلوا، بمحض اختيارهم وإرادتهم، ديانة أخرى ويرفضون الاعتراف بأن النعمة قد هبطت على العالم بشخصية يسوع المسيح، كانت غير مفهومة وغير محتملة. ولذا، بقي اليهود في الخيال المسيحي، غالبا، أبناء أحياء ليهوذا الاسخريوطي، تم نفيهم من القدس بجريرة خطاياهم، وهم يشكلون خطرا مستديما على أتباع يسوع الطاهرين والأبرياء. صحيح أنه لم يتم تبنّي مشاريع الإبادة، كما تم تطبيقها على الوثنيين أحيانا ـ اختارت الكنيسة الإبقاء على اليهودي البائس كدليل وبرهان على صدقية طريق الإيمان الحقيقي ـ لكن الآراء المسبقة، الاعتداءات الدورية، عمليات الطرد الجماعي، الفِريات الدموية والمجازر التلقائية – كانت، كلها، جزءا ملازما وراسخا من الحضارة «اليهودية ـ المسيحية»، منذ تأسيسها وحتى نهاية العصر الحديث.

شكلت معاداة «الآخر» الكنسية طويلة السنين هذه قاعدة ذهنية لولادة رهاب اليهود الحديث في القرن التاسع عشر. فبدون وجودها، كخلفية تاريخية متواصلة، من المشكوك فيه ما إذا كانت الكراهية القومية ـ العنصرية الجديدة ستنجرف نحو هذه القنوات العميقة والطويلة جدا. من شبه المؤكد أنه بدونها، لم تكن هذه لتأخذ مثل هذه الأبعاد الواضحة والمستمرة. وأكثر من هذا، لئن كان متاحا لليهود، حتى ذلك الحين، مبدئيا ورغم الحواجز، «التحسن» و«الزهوّ» بواسطة التغطيس (التعميد) والتحول، مع كثير من الجهد والنية الحسنة، إلى مسيحيين جدد، فقد بدأت تنغلق منذ الآن مسارات الفرار والنجاة التي وفرّتها عمليات التحول الديني التقليدي. فلم يعد اليهود يستطيعون التحول إلى أنغلوسكسونيين

حقيقيين، وغالو كاثوليكيين فخورين، وآري توتونيين أصلاء، أو برافوسلافيين قوميين.

في القرن التاسع عشر، حينما أخذ المؤمنون اليهود في التحرر الجماهيري الواسع، سواء من الغيتوات الحقيقية التي فرضتها عليهم الأنظمة المسيحية في السابق، أو من الغيتوات الأيديولوجية والذهنية التي شيدتها لهم المؤسسات الدينية اليهودية، وأصبحوا على وشك المساهمة، بدور فعال، في إنتاج الثقافات القومية في القارة الأوروبية، وُلدت في المقابل العنصرية المتعصبة التي سارعت إلى رفضهم وإقصائهم، بعدوانية شديدة. وحينما أصبح اليهود وذراريهم - على خلفية كونهم أكثر مدينية من غيرهم نسبيا - يتصدرون الصفوف الأولى بين الفرنسيين، الألمان، الهولنديين والبريطانيين (سواء أكانوا من أتباع ديانة موسى أم علمانيين خالصين)، على المستويين الثقافي واللغوي - في تلك الفترة، بالذات، واصلت القومية الجديدة التعامل معهم كأجسام غريبة تتحرك خفية في عروق الأمم الجديدة وسرعان ما ستغرز أنيابها المشحوذة في جدران هذه العروق، في أي لحظة مواتية.

كان الفرنسيون، في سيرورة التأميم الكبيرة، بحاجة إلى العدو الألماني، والألمان في حاجة إلى العدو السلافي، والبولنديون في حاجة إلى العدو الأرثوذكسي وهكذا دواليك. وهكذا، بقي عدو «الزمان الطويل» (long durée) من غير بديل وناجعا جدا في عملية الهيكلة الاستعراقية بين القوميات ذات الخلفية المسيحية.

كانت ثمة حاجة إلى أي ذرة من أي مقوّمات ثقافية موحِّدة، دينية كانت أم لغوية، من أجل تعزيز قوة الاختراع الوهمي بشأن الأصل القومي المشترك. وقد أدت اليهودية، بكونها نقيضا للهوية المسيحية، هذه المهمة بكفاءة عالية. وكان واضحا أن رهاب اليهود قد تفشى في باريس أكثر منه في لندن، وفي برلين أكثر من باريس، وفي فيينا أكثر من برلين، وفي بودابست ووارسو وكييف ومينسك أكثر من الغرب. ودرجت القومية الجديدة، في كل مكان، على انتزاع قاتل ابن الرب اليهودي من التراث المسيحي وزرعه في شخصية الآخر الذي يساعد في بلورة حدود القوميات الجديدة ورسمها. والمؤكد أن ليس جميع أنصار القومية كانوا مصابين برهاب اليهود، لكن جميع اللاساميين السياسيين كانوا من بين البنّاءين المخلصين لعملية هيكلة الأمم والفاعلين فيها.

***

امتد القرن الطويل الموسوم برهاب اليهود، كما ذكرنا آنفا، من العام ١٨٥٠ حتى العام ١٩٥٠. وربما كان من الممكن اعتبار موعد ظهور «اليهودية في الموسيقى» التاريخَ الرمزي لولادة رهاب اليهود الرسمية، وهو عنوان المقال الشهير الذي نشره ريتشارد فاغنر في العام ١٨٥٠. أما موعد نهايته، فأقترح اعتباره قرار البابا يوحنا الثالث والعشرين شطب وإلغاء تعريف اليهود ككفار وخونة (perfidei)، في العام ١٩٥٩. لكن تنامي الكراهية الحديثة واستشراءها، بسرعة البرق، قبل استيقاظ الوحش النازي من مهجعه، تزامن مع تعاظم تيار المهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية إلى الغربية في نهاية القرن التاسع عشر. ومثلما تساهم الكراهية تجاه المهاجرين العرب والمسلمين اليوم في تشخيص وترسيخ وتحديد (من حدّة) هوية أوروبا «البيضاء» و«اليهودية - المسيحية»، التي يتم بناؤها بجهد عظيم وبمصاعب جمة، كذلك ساهمت موجات هجرة الجاليات البيديشية في بلورة الوعي الإثنو قومي، قبل ذلك بمئة عام. وقد جاءت تلك الهجرة من مناطق ضائقة يهودية أشدّ بؤسا وصعوبة بكثير من تلك التي كانت ذات مرة قائمة في الغرب أو في ظل حضارة الإسلام.

مهاجرون ومصابون برهاب اليهود

بعد عدة أعوام من إنجازي أطروحة الدكتوراه عن الفيلسوف النزوي جورج سوريل (Sorel)، شدّ اهتمامي البحثي أحد أصدقائه، ممن يجوز اعتبارهم إحدى الشخصيات الثقافية والفكرية الأكثر إثارة للفضول وحب الاستطلاع في مفترق القرنين التاسع عشر والعشرين. إنه برنارد لازار (Benard-Lazare) الذي كان أول من تجند، بجرأة نادرة وضد العالم المحيط به برمته، من أجل إثبات براءة ألفرد درايفوس. ونتيجة لهذه المهمة الكفاحية، ولكونه متمردا متميزا، أصبح الـ «إسرائيلي» (نسبة إلى «بني إسرائيل»، أو «أسباط إسرائيل»، الاسم التوراتي لليهود-المترجم) يهوديا وأعلن ذلك جهارا باعتزاز، بل بتحدٍّ. وكان ذلك تعريفا ذاتيا مستقلا غير مقبول وغير شعبي، إطلاقا، بين أوساط «الإسرائيليين» في أوروبا الغربية والوسطى في تلك الحقبة الهادئة والمفعمة بالتفاؤل.[1]

وحتى لو لم تصبح فلسطين أرض أحلامه المتحققة، حقا، إلا أن بالإمكان اعتباره الصهيوني الأول في فرنسا، لأنه آمن بحق اليهود في تقرير مصيرهم القومي. ولم يتخل عن عضويته في صفوف الحركة الصهيونية سوى بعد أن رفض هرتسل وأنصاره، خدمة لأهدافهم، التحفظ من اضطهاد السلطان التركي للأرمن، وسارعوا بدلا من ذلك إلى تأسيس بنك لتمويل استيطانهم في الأرض المقدسة. ومع ذلك، فقد واصل النضال، دون كلل، لنصرة يهود رومانيا المضطهَدين وكرّس لذلك كل ما تبقى لديه من قوة واهنة، حتى

---

١ . بدءا من القرن التاسع عشر، فضلت المؤسسات والأوساط اليهودية المختلفة في أوروبا الغربية والوسطى استخدام مصطلح «إسرائيلي»، تجنبا للدلالة السلبية التي كان ينطوي عليها مصطلح «يهودي» في التراث المسيحي الطويل.

وفاته المفاجئة في العام ١٩٠٣.

في المقابل، فإن قلائل هم الذين يعرفون أنه كان لاساميّا «جزئيا» في بدايات شهرته كأديب رمزيّ وروائي فوضوي، في مطلع التسعينيات من القرن التاسع عشر. وكان «جزئيا»، لأنه درج على التشهير ببعض اليهود وتلطيخ سمعتهم - ليس كلهم بصورة جارفة، بل «فقط» اليهود «الشرقيين».

فقد كان يشرح، في مقالاته الثاقبة واللاذعة، أنه لا يجوز الجمع بين «الإسرائيليين» البرتغاليين والإسبان، الأنيقين والمهذبين - الذين كان يعتبر نفسه واحداً منهم - وبين أحفاد قبائل الهون القبيحين والملوثين الذين يتوافدون، بأسراب متزايدة ومتصاعدة، من الإمبراطورية الروسية ويُغرِقون أوروبا الجميلة خاصته. وكان برنارد لازار، تمشيا مع الموضة السائدة، مقتنعا بأن هؤلاء يمثلون عِرقاً منفردا ومختلفا تماما عن اليهود في أوروبا الغربية. وكان من الضروري، برأيه، بذل كل ما يلزم لمنع هجرة هؤلاء إلى فرنسا أو إلى أي من جاراتها.

كان موقف المفكر الفرنسي هذا راديكاليا، حقا، لكنه لم يكن شاذا في بيئته، وإنما عكس، إلى هذا الحد أو ذاك، رأي الـ«غالو كاثوليكيين»، و«الأنغلوسكسونيين»، و«الألمان الآريين» وكثيرين آخرين غيرهم حيال المهاجرين الذين يشكلون خطرا على الثقافات الـ«الأصلية» في الغرب. ولم يكن رأي الجاليات «الإسرائيلية» المتداخلة في الثقافة المحلية في باريس مغايراً.

كان يعيش في أنحاء الإمبراطورية الروسية، في غاليسيا النمساوية، في هنغاريا ورومانيا، في أواخر القرن التاسع عشر، نحو ثمانين بالمئة من يهود العالم وذراريهم العلمانيين، وقد زاد عددهم عن سبعة ملايين (وكان جزء غير قليل من يهود ألمانيا، أيضا، من أصول شرقية). إن التفسير الوحيد المعقول لهذه الظاهرة الديمغرافية المذهلة ليس وفرة الغذاء الذي نجح اليهود في سلبه من جيرانهم بالخداع. ولم يكن هذا العدد الكبير، أيضا، نتيجة غسل اليدين قبل تناول الطعام، رغم محاولة مؤرخين صهيونيين، أحيانا، طرح مثل هذا التفسير المستهجن. ولم يكن، أيضا، نتيجة الغريزة الجنسية التي لا تكل لدى الذكور اليهود، كما اقترح اللاساميون آنذاك. والحقيقة هي أن مثل هذه الزيادة الديمغرافية لم تحصل بين يهود أوروبا الغربية الذين عاشوا، كما هو معروف، في ظروف وفرة ورغد أفضل، نسبيا، مما كان في أوروبا الشرقية.

وهم، أيضا، كانوا يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام. ولم تحصل مثل هذه الزيادة، أيضا، في شمال إفريقيا أو في بلاد الرافدين حيث لم يكن اليهود يخضعون، بشكل عام، لضغوط بيئية شديدة من جانب جيرانهم المسلمين.

وكما كان معظم مؤرخي اليهودية، صهيونيين وغير صهيونيين، يرجحون، حتى ستينيات القرن الماضي، فإن وجود الإمبراطورية الخزرية (مملكة الخزر) المهوَّدة، التي امتدت على سهول جنوب روسيا وأوكرانيا الشرقية والقوقاز، هو وحده الذي يمكن أن يفسر هذه الظاهرة الديمغرافية المذهلة، التي قد تكون الأكثر أهمية في التاريخ اليهودي الحديث.

وأدى تضعضع مملكة العصور الوسطى هذه، ثم انهيارها التام، بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين، إلى هجرة اليهود غرباً، إلى المناطق التي ستصبح لاحقا أوكرانيا الغربية، ليتوانيا، بولندا، روسيا البيضاء، غاليسيا، هنغاريا ورومانيا. (في منتصف القرن الثامن عشر، قبل وقت قصير من بدء الانفجار الديمغرافي الذي أغرق عموم سكان أوروبا، كان في الاتحاد البولندي ـ الليتواني وحده أكثر من ٧٥٠ ألف يهودي، بينما كان عددهم في غرب القارة وجنوبها في ذلك الوقت نحو ١٥٠ ألفا).

وحافظ يهود أوروبا الشرقية خلافا للجاليات اليهودية الأخرى في أنحاء العالم المختلفة، على أنماط حياة وتقاليد ثقافية مختلفة تماما ومنفصلة عن جيرانهم. ولئن كان يهود غاليا، إيطاليا، غرب ألمانيا، شبه الجزيرة الأيبيرية، شمال إفريقيا وشمال الهلال الخصيب ـ السكان الأصليون الذين تم تهويدهم أو أولئك الذين هاجروا إليها ـ تشاركوا مع جيرانهم غير اليهود في اللهجات اللغوية المحلية وفي عادات الحياة اليومية، ولئن كانوا قد عاشوا، على الدوام تقريبا، في تجمعات سكانية مشتركة، فإن التطور الاجتماعي ـ الثقافي في أوروبا الشرقية كان مختلفا تماما.

فقد تركز يهود أوروبا الشرقية، طيلة مئات الأعوام، في بلدات وتجمعات سكانية قروية خاصة بهم، أو في تلك التي شكلوا فيها أغلبية، أو أقلية كبيرة، على الأقل. إن «الشطعطل» (البلدة اليهودية)، هي بلدة شبه قروية وشبه مدينية، أصبحت مهداً أساسيا للجالية اليديشية الكبيرة. ومع انطلاق عملية التمدين، أيضا، واصل أبناؤها المحافظة على تميزهم الثقافي، ليس

في الشعائر والطقوس الدينية فحسب، مثل اليهود الآخرين في أنحاء العالم الأخرى، وإنما أيضاً في نمط حياتهم اليومي الأكثر «علمنة». ولم يتناولوا الطعام «الحلال» («كاشير») فقط، بل أضافوا وطوروا أطعمة خاصة بهم، تختلف عن أطعمة جيرانهم. لم يكتفوا باعتمار غطاء للرأس فقط، بل وضعوا قبعات من الفرو وارتدوا ألبسة مختلفة عن ألبسة جموع الفلاحين من حولهم. ولم يتكلموا بلغة جيرانهم، أيضا، بل فضلوا ـ على خلفية المهن التي عملوا فيها أساسا ـ تبني لهجات ألمانية شرقية كانت شائعة بين النخب الاقتصادية التي قدمت من الغرب. كما انعكس قدوم مثقفين حاخاميين من مناطق اللغات الألمانية، أيضا، في بلورة التعابير والمصطلحات اليديشية المتميزة، التي كانت أكثر سلافية في الشرق وأكثر ألمانية في الغرب.

وينبغي التأكيد أيضا على ما يلي: خلافا للجاليات اليهودية الصغيرة في أوروبا الغربية، أو في العالم الإسلامي، التي لاءمت لنفسها عادات وتقاليد دينية «مخففة»، وعلاقات تكافلية مع جيرانها غير اليهود، طوّر يهود اليديش في أوروبا الشرقية لأنفسهم عادات وتقاليد متشددة وانفصالية عن بيئتهم غير اليهودية. وكان عدم التسامح بل التشدد الديني لديهم شبيها، في جوانبه المختلفة، بذلك الذي ميّز التيارات الأكثر تشددا وتعصبا في الأرثوذكسية المسيحية. (وقد ظهر تقارب، أيضا، بين الروحانية الحسيدية والروحانية الشعبية غير اليهودية في تلك المناطق). ومع انطلاق عمليات التحديث والعلمنة، دفع عالـَم الفرائض والشعائر الذي لم يكن يقبل المساومات ببعض الأحفاد العلمانيين في العائلات اليهودية، بعكس مناطق أخرى في العالم، إلى إبداء موقف عدائي بشكل خاص حيال التقاليد الدينية الانغلاقية. فأصبح كثيرون من بنات وأبناء اليهود اشتراكيين ملحدين ـ ثوريين اشتراكيين، بلاشفة، مناشفة، بونديين (أعضاء حزب العمال اليهود في روسيا، بولندا وليتوانيا ـ المترجم)، فوضويين وغير ذلك. وردّت المؤسسات اليهودية على ذلك بحزم فحرّمت أي علاقة مع هؤلاء «الساقطين».

كانت الإمبراطورية الروسية، كما الإمبراطورية النمساوية ـ الهنغارية بالضبط، كبيرة للغاية ومتخلفة جدا، من الناحيتين الاقتصادية والسياسية، وعاجزة، بالتالي، عن أن تشكل نقطة انطلاق رسمية لولادة قومية موحَّدة وموحِّدة على أسس مدنية، وهي السيرورة التي حصلت قبل ذلك في أوروبا الغربية. وأكثر من كونها برنامجا لبناء وتشكيل قومية على أسس

مدنية، شكلت القومية السلافية الموحَّدة أداة للمراوغة والاضطهاد في يديّ القيصر. ولذا، فقد نشأت بدلا منها وفي مقابلها مركّبات قومية محلية، منفصلة ومختلفة، تأسست على المميزات اللغوية والدينية الخاصة في كل منطقة. وهكذا بدأت تنشأ وتتبلور القوميات البولندية، الأوكرانية، الليتوانية، اللاتفية وغيرها. وقد وقعت، في جميع المناطق التي كانت تقطن فيها، بصورة مختلطة، مجموعات سكانية ذات لغات مختلفة، تقريبا، احتكاكات غير محتملة ومناوشات خطرة. لكن وجود الجالية اليديشية في تلك المناطق رفع، أكثر فأكثر، عتبة عدم التسامح الحديث الذي ميّز مجمل التيارات القومية الاستعراقية. وكان من شأن موجات البوغرومات التي بدأت في ثمانينيات القرن التاسع عشر، بالتزامن مع القيود والإجراءات التي فرضها الحكم القيصري، وخاصة حيال ظروف الحياة غير المحتملة في تلك المناطق، أن دفعت بالجاليات اليهودية نحو الخارج فبدأت موجات الهجرة التي أغرقت عواصم الغرب.

ثمة تقديرات شتى لحجم تلك الهجرات. وعلى أي حال، تم اقتلاع نحو ثلاثة ملايين إنسان من أماكن إقامتهم فتشردوا في طرق مختلفة حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. أخذت هذه الأعداد الغفيرة تتحرك، سريعا، نحو الغرب ما أثار، كما ذكرنا، ردّات فعل حادة جدا من الكراهية والعداء والخوف، ليس لدى الجمهور غير اليهودي فقط، بل لدى المؤسسات اليهودية الأوروبية أيضا. تجمع هؤلاء المهاجرون، الفقراء البؤساء، بملابسهم الغريبة، عاداتهم الخاصة ولغتهم المميزة، في أحياء الفقر التعيسة في فيينا، برلين، باريس ولندن، واستمر الدفع بالجزء الأكبر منهم حتى وصل، في نهاية المطاف، إلى نيويورك، بوينس آيرس وغيرهما من المدن الكبيرة في الولايات المتحدة وأميركا اللاتينية.

لم توضع مسألة تصاعد رهاب اليهود وتفاقمه نتيجة للهجرة، حتى الآن، قيد البحث والدراسة، بصورة جذرية وعميقة، على المستوى الأوروبي العام. لكن تعميق الوعي والفهم لمسار العذاب والمعاناة الذي سبق الجينوسايد النازي وقاد إليه، لا يمرّ فقط عبر محاولات اكتشاف أسرار وخفايا تيارات رهاب اليهود الاستعراقي في أنحاء أوروبا وطبيعة القومية الألمانية المحددة، ولا يكتفي فقط بالكشف المعمق عن مساهمة مسلسل العنف في إبان الحرب العالمية الأولى ودوره في إتاحة القتل المصنَّع في إبان الحرب العالمية الثانية، ولا يتحقق فقط

بفهم سيرورة تبلور أجهزة الدولة النازية وطابعها المميز، بل يحتاج أيضا إلى تحليل دقيق وصارم لأسباب وأبعاد ارتفاع عتبة الحساسية وتفشي الكراهية نتيجة الكم السكاني الهائل الذي وصل إلى أوروبا الشرقية.

***

كانت البوغرومات والاقتلاع ثم التشرّد غربا، الضربة الأولى التي تلقاها شعب اليديش الذي أخذ يتشكل ويلتئم في أعقاب سيرورات التحديث في نهاية القرن التاسع عشر. وكانت الصدمة الثانية الثورة البلشفية التي استخدمت وسائل وإجراءات إدارية في محاولة لخنق ثقافته المتمايزة، بتعبيراتها وتشكيلاتها المتنوعة. أما الضربة الفادحة، المميتة، الثالثة فكانت المجزرة النازية التي أفنت، جسديا، الأغلبية الساحقة من شعب اليديش الذي بقي في أوروبا. وأما الضربة الرابعة فكانت الصهيونية التي، شأنها شأن البلشفية، مَحَت وبددت كل ما استطاعت من لغته وأنشطته الثقافية. ومن الواضح أنه لا ينبغي النظر إلى هذه الضربات باعتبارها نسيجا واحدا، لا من حيث دوافعها، ولا من حيث نتائجها وأكثر من هذا ـ لا من حيث طابعها الأخلاقي.

من شرقيين إلى شرقيين آخرين

تم قبولي، في العام ١٩٧١، بعد جهد جهيد، طالباً في جامعة تل أبيب. ونظرا لأن معرفتي باللغة الإنكليزية كانت متدنية جدا، فقد اضطررت، شرطاً للقبول، إلى اجتياز دورة تحضيرية لتحسين هذه اللغة. في الدرس الأول من هذه الدورة، وفيما كان يتملكني الرعب من مغبة الفشل، طلب المعلم من جميع الطلاب تسجيل اللغات الأخرى التي يتقنونها على ورقة منفردة. وفي الغداة، مع بداية الدرس الثاني، سأل: «مَن هو شلومو ساند؟». رفعت إصبعي، بتردد، متسائلا ما إذا كان هذا تكرارا للكابوس الذي تعرضت له في المدرسة الثانوية قبل طردي منها في كل مرة لم أفلح في الإجابة عن سؤال ما. أما الأمور التي حفظتها عن ظهر قلب في البيت، فلم أسأل عنها قط. لكن الأمر كان مختلفا هذه المرة: «إن ساند هو الوحيد الذي سجَل البيديش. فمَن بين الطلاب، أيضا، يتقن هذه اللغة؟». ارتفعت تسع أصابع أخرى. في مطلع السبعينيات، كان كثيرون في إسرائيل ما زالوا غير مستعدين للاعتراف بأنهم يتقنون لغة «الشتات» البائسة. والحقيقة أنني أنا أيضا شعرت بالخجل وترددت كثيرا قبل تسجيل «البيديش» لغة ثانية.

لكنها لم تكن ثانية. فالبيديش كانت لغة الأم بالنسبة لي وبها تواصلتُ مع والديّ، منذ نطقتُ الكلمات الأولى وأنا طفل رضيع. وبوفاتهما، ومع وفاة معارفهما أيضا، نفد احتياطي محاوريّ بلغة البيديش فغاصت في أعماق عقلي اللاواعي، وربما لم تعد موجودة هناك أيضا. لقد تعرّفت على البقية الضئيلة من متحدثي البيديش جيدا خلال مكوثي في باريس، حينما قابلت بونديين وشيوعيين قدامى، وأكثر من ذلك خلال زيارتي الأولى إلى نيويورك في العام ١٩٨٨. فقد كانت تلك، بالنسبة لي، فرصتي الأخيرة في الحياة لتدريب لغتي القديمة مع مهاجرين

مسنين من أوروبا الشرقية التقيت بهم هناك، بينما أصبح أغلبهم في إسرائيل يمتنعون عن التحدث بها في الحيز العام (باستثناء الأوساط الحسيدية، بالطبع، التي لم أختلط بها إطلاقا).

وبالمناسبة، أدركت فقط بعد مكوثي في الولايات المتحدة سبب ربط الأميركيين الهوية اليديشية بهوية يهودية شاملة متخيَّلَة والخلط بينهما. كيف لا يستطيعون التمييز بين ثقافة ـ شعب ازدهرت بين جمهور واسع جدا في منطقة جغرافية شاسعة ومحددة، وبين ثقافة ـ دين عالمية شاملة انتشرت، بتنوع كبير، في قارات مختلفة؟ حتى السخرية السلافية ـ اليديشية، كما درج رومان غاري على تعريفها، والتي ما تزال بقاياها تغذي بعض الممثلين الكوميديين في نيويورك، كما أفلام وودي ألين أيضا، يطلقون عليها اسم السخرية اليهودية. وهذه السخرية العينية هي التي غذّت نيقولاي غوغول (Gogol) وشالوم عليخم. لكن الروتشيلديين الموهوبين، وكذلك الأدباء اليهود العراقيين الرائعين، لم يعرفوها مطلقا. هؤلاء ضحكوا وأضحَكوا بإبداعات فكاهية أخرى. كما أن الفكاهة الإسرائيلية الراهنة تختلف تماما. وإذا كان ثمة تعبير ثقافي، عدا الشتائم واللعنات، ينبع من الوجود اليومي المميز للمكان الجغرافي، مباشرة، وليس من تراث مكتوب ورفيع، فإنه الفكاهة بالتحديد.

وبالفعل، فقد ماتت ثقافة اليديش الغنية منذ زمان بعيد. وحتى إن كان ثمة أشخاص، طلاب جامعيون وآخرون، يدرسون مساقات حول لغة يهود أوروبا الشرقية، إلا أنهم لا يتواصلون بهذه اللغة ولا ينتجون بها. فذِكر ثقافة اليديش، التطرق إليها ودرسها قد يدفئ قلوب محبي النوستالجيا، لكنها غير قادرة على خلق وإنتاج شخصيات وحالات كتلك التي نلتقي بها في النُصب التذكارية البلاغية الكبيرة التي خلـفها كُتّاب من أمثال شالوم عليخم أو إسحق بشيفز زينغر (ليس صدفة أن عملاقيّ الأدب اليديشي هذين أنهيا حياتهما في أميركا الشمالية وليس في الشرق الأوسط). كذلك فإن الحلم الجميل الذي راود أعضاء البوند، الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي اليديشي الأكبر في الإمبراطورية الروسية، ثم في بولندا، والذي (الحزب) استند إلى ثقافة الشعب الحية، خلافا للصهيونية، ولم يكن في حاجة إلى زخارف دينية كي يحدد ويبلور لنفسه هوية شبه طبقية وقومية – ذلك الحلم تبدد وتلاشى منذ زمان، إلى غير رجعة. وتشير التقديرات إلى أنه حتى نهاية الحرب العالمية الثانية كان ما

يزيد عن ١٠ ملايين إنسان يتكلمون لهجات مختلفة من اليديش. ولم يبق منهم في بداية القرن الحادي والعشرين، سوى بضع مئات من الآلاف، وخاصة من المتدينين الحريديم أساسا. اختفت ثقافة شعب بأكملها واندثرت، ومن الواضح أن لا رجاء في محاولات بعث الحياة فيها من جديد. فالحقيقة هي أنه ليس في الإمكان، إطلاقا، إحياء ثقافة أو لغة، من جديد. أما طموح الصهيونية غير الواقعي إلى إعادة إحياء العبرية القديمة وثقافة «شعب التوراة» فهو ليس سوى أسطورة قومية تربت أجيال من الإسرائيليين والصهيونيين، في أنحاء العالم المختلفة، على الإيمان بصدقيتها.

وحتى لو كان بعض المفكرين الأوائل من واضعي الفكرة الصهيونية قد أتوا من العالم الروحيّ في ألمانيا، إلا إن مؤسسي المشروع الاستيطاني قد ولدوا، بغالبيتهم، في ثقافة اليديش الشرقية وكانت لغتهم الأم هي«اللغة الدونيّة» التي كان الألمان الإسرائيليون (نسبة إلى «بني إسرائيل»، أو «أسباط إسرائيل»، الاسم التوراتي لليهود ـ المترجم)، أي الأشكنازيين، يحتقرونها. وسرعان ما تنصل المستوطنون، اليديش سابقا، أيضا، من لغتهم الأم المحتقرة. فقد بحثوا، أولاً، عن لغة توحّد جميع اليهود في العالم، بينما لم تكن اليديش لغة ثيودور هرتسل ولا إدموند دي روتشيلد. وثانيا، أراد الصهيونيون الطلائعيون خلق يهودي جديد لا يذكّرهم بعالمهم الثقافي الشعبي، عالم آبائهم وأجدادهم في البلدات التعيسة.

في أعقاب محاولات سابقة جرت في الإمبراطورية الروسية لاستخدام لغة التوراة والصلوات كأساس للإبداع الحديث، راحوا يستولدون لغة اتصال جديدة ثروتها الكلامية الأساسية مستقاة من كتب «التناخ»، لكن تهجئتها كانت آرامية ـ أشورية (أي، من المشناه) وليست عبرية ـ كنعانية، وكان النحو الحاسم فيها ييديشيا ـ سلافيّا (وغير توراتي، على الإطلاق). وتسمى هذه اللغة، خطأً، «عبرية»، وحتى أنا أضطر، بدون مفر، إلى استخدام المصطلح، رغم أنه كان من الأجدر تسميتها، على خطى علماء لغويين طلائعيين، «إسرائيلية». فحتى قبل قيام دولة إسرائيل، كانت هذه اللغة قد ازدهرت وأصبحت، بسرعة فائقة نسبيا، لغة الاتصال الرسمية بين جاليات الصهيونيين الذين بدأوا يستوطنون في فلسطين. فقد بدأ أبناء الطلائعيين يتحدثون ويكتبون بها، وهم الذين سيصبحون مستقبلا النخبة الثقافية،

العسكرية والسياسية في إسرائيل، خلال الأعوام الأولى على قيامها. وكان نفور الصابرا المحليين من ثقافة البيديش فظا وصارما، كما شجعهم في ذلك زعماء المهاجرين، بنجاعة كبيرة. وقد حظر دافيد بن غوريون استخدام لغة يهود أوروبا الشرقية في مؤتمر حزبه الاشتراكي. ومعروفة جيدا الحادثة التي وقعت في مؤتمر نقابة العمال العبريين في العام ١٩٤٤ حينما ألقت بارتيزانة سابقة من فيلنوس خطابا بالييديش حول المذبحة الجماعية في وطنها فصعد الزعيم المؤسِّس إلى المنصة واستنكر استخدامها لغة «غريبة ومستفِزّة». وحينما تأسست الجامعة العبرية في القدس في العام ١٩٢٥، لم تفتتح فيها كاتدرائية للغة الييديشية ما اضطر الطلاب الذين رغبوا في دراسة الثقافة المندثرة إلى الانتظار حتى العام ١٩٥١.

وتم في العام ١٩٤٩، بعد قيام دولة إسرائيل ومع توافد الهجرات المكثفة من بقايا الجينوسايد الناطقين بالييديش، سن قانون يحظر على المواطنين الإسرائيليين تنظيم عروض مسرحية وتمثيلية بلغة المهاجرين (وسُمح للفنانين الضيوف الناطقين بلغة «الشتات» بتقديم عروض لفترة محدودة أقصاها ستة أسابيع). وفي بداية السبعينيات فقط، بعد ضمان انتصار الثقافة المحلية الجديدة في إسرائيل، أخذ الموقف المتصلب يلين قليلا حيال اللغة القديمة والملعونة.

لم يكن هذا التعامل المستهتِر والمخجِل تجاه الييديش يرمز إلى سلوك أكثر لطفا حيال ثقافات ولغات المجموعات الأخرى من المهاجرين. ورغم أن نبوءة ثيودور هرتسل افترضت أن يتحدث سكان «دولة اليهود» بلغته هو، أي الألمانية، إلا أن الصهيونيين المستوطنين، المتحدثين بالييديش سابقا، نظروا إلى لاجئي ألمانيا الذين بدأوا بالتوافد - وخاصة بعد صعود النازيين إلى الحكم وإغلاق حدود الولايات المتحدة في وجههم - باعتبارهم «يهودا مختلطين» يحاولون، بكل قوتهم، استحضار ثقافتهم الألمانية إلى أرض التناخ، وهو ما لم يكن غير صحيح تماما. وحصل في إطار المشروع الصهيوني، انقلاب تاريخي في الموقف المستهتِر الذي أبداه سابقا «الأشكنازيون»، كما كان يسمى يهود ألمانيا المتحضرون آنذاك، حيال «الأوست يودن» (Ostjuden)، كما كان يسمى اليهود في أوروبا الشرقية، بل حظي أيضا بعدالة خيالية، ينبغي أن نضيف (أنها كانت) - زائفة جدا: منذ الآن أصبح أحفاد الشرقيين هم النخبة السياسية

الحاكمة وأصبح استهتارهم بـ«الييكيم» الألمان قويا وجليا.

وكما نسب مؤلفو التناخ اليهود لأنفسهم، في الماضي البعيد، حق التأليف على اسم «إسرائيل»، الاسم المرموق للمملكة الشمالية في أرض كنعان، بغية إطلاقه على «الغريب المقدس»، كذلك أيضا تقبل اليديشيون السابقون، برضى، صفة «أشكناز» الرفيعة. وسوية مع ذلك، رسموا لأنفسهم أسطورة تقول بأن أصلهم التاريخي كان من ألمانيا المتحضرة، لا من الشرق الذي يعتبر متخلفا، وهكذا أصبح دور «الشرقيين» الدونيين في دولة إسرائيل الفتية من نصيب جمهور مختلف وجديد هاجر، بأغلبيته الساحقة، من المغرب.

بدأت في أعقاب حرب ١٩٤٨ وإقامة السيادة الصهيونية، موجات كبيرة من المهاجرين اليهود الذين اضطروا إلى هجر بلدانهم من دون أي ممتلكات أو إمكانيات تتوافد من الدول العربية والإسلامية. وكان العامل المسرّع لذلك، النزاع العسكري في فلسطين. لكن حقيقة أن القومية المعادية للكولونيالية في أنحاء العالم العربي لم تنجح، أبدا، في الفصل بين دين طائفي وبين دولة علمانية خلقت، هي أيضا، حالة من الارتياب والخوف في أماكن عديدة وساهمت، غير قليل، في الدفع نحو الهجرة والرحيل.

كانت تلك، بدرجة كبيرة، هجرة مأساوية وشاقة بصورة استثنائية. فقد قدمت إلى إسرائيل من بلاد المغرب (العربي) شرائح واسعة من المسحوقين، بينما قصدت النخب الثقافية والاقتصادية ووصلت إلى شواطئ أمان أخرى، سواء في أوروبا أو في أميركا الشمالية.[١] أما من العراق، في المقابل، فقد هاجرت إلى إسرائيل مجموعة أكثر تغايرا من الناحية الاجتماعية - الثقافية، لكنها عانت هي الأخرى، غير قليل، من التمييز والإذلال، رغم اندراجها في إطار الطبقة الوسطى وطبقة المثقفين الواسعة.

وحتى لو كان أوائل المستوطنين الصهيونيين في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين قد أبدوا درجة معينة من التعاطف الرومانسي مع الفولكلور الشرق أوسطي، إلا إنه سرعان ما نشأ جدار حديدي حمى الجماعة الصهيونية من مغبة أي تعايش خطر مع الحضارة

١ . لم يصل من الجزائر، بعد استقلالها في العام ١٩٦٢، أي من المهاجرين إلى إسرائيل تقريبا، لأن معظمهم كان يحمل الجنسية الفرنسية.

العربية المحلية. وتبلورت العلاقة حيال الثقافة الأصلانية، في نهاية الأمر، طبقا لأبرز الميول الاستشراقية الغربية التي شاعت في إبان عصر الاستعمار. فقد اعتبر هرتسل أن دولة اليهود الموعودة تمثل «رأس حربة الثقافة ضد البربرية» الآسيوية، وكان قادة المشروع الصهيوني كافة شركاء، إلى هذا الحد أو ذاك، في الأيديولوجية الأساسية هذه. ومن هنا، أيضا، العلاقة العمياء والمتصلبة حيال الأصلانيين القرويين الذين كانوا يقيمون على أراضيهم منذ مئات الأعوام. فالجزء الأكبر من عرب فلسطين اقتُلع من أرضه ـ كما هو معروف ـ وفرّ في إبان حرب العام ١٩٤٨، بينما تم حبس مَن بقوا في أماكنهم بعد تأسيس الدولة في حدود حُكم عسكري، لأعوام طويلة جدا، إذ اعتُبِروا الجزء الأكثر دونية في المجتمع الجديد وكانوا الجزء الأكثر تعرضا للإقصاء منه.

ونظرا لأن ثقافة المهاجرين العرب ـ اليهود العلمانية اليومية، وكذلك لغتهم، كانتا عربيتين (وبربرية/ أمازيغية وفارسية أيضا، في حالات قليلة)، فقد تراوحت علاقة المؤسسة الرسمية الإسرائيلية حيالهم، منذ البدايةِ، بين الاستهتار العميق والتشكك الصريح. حتى أن بن غوريون قد صرح، ذات مرة، بأنه لا يريد ثقافة مغربية في إسرائيل. وأضاف أنه، لمزيد الأسف، «اليهودي المغربي قد تشرّب كثيرا من العربي المغربي». وقد تم تركيز المهاجرين «الشرقيين»، بالأساس، في أطراف الدولة النائية وحصلوا على القليل جدا من الامتيازات في توزيع الغنيمة الإقليمية التي تم احتلالها في العام ١٩٤٩. وكثيرون من المهاجرين الشرق أوروبيين، الناطقين باليديش سابقا، اعتبروهم أقل يهودية بكثير، إن كانوا يهودا أصلا.

وكانت المفارقة أنهم حافظوا على كونهم يهودا، أكثر بكثير من جميع المهاجرين الآخرين إلى الدولة الفتية. كانت غالبية المهاجرين من شعب اليديش من الأكثر علمانية، نسبيا، ولذا فقد اضطرت، بغية بلورة تميزها الهوياتي، إلى الاتكاء ـ بغير إرادتها ودون اعترافها بذلك ـ على خليط من يهودية تقليدية وأنماط حياتية علمانية يديشية، كانت تميزها في الماضي عن «الأغيار» الذين كانوا يحيطون بها. وفي المقابل، تمثلت سمات اليهودية الوحيدة لدى المهاجرين العرب ـ اليهود في الممارسات والطقوس الدينية التي جلبوها معهم. أي، كل ما كان علمانيا ويوميا

في أنماط حياتهم واتصالهم كان عربيا، فاعتُبر سلبيا ومنفّرا في الثقافة الإسرائيلية المتبلورة.[2] ولكي لا يكونوا عربا في «دولة اليهود»، فمن الأجدى الحفاظ على وإبراز وإظهار تقاليد العبادات والشعائر الدينية، بأقصى ما يمكن.

خفف الكبح الذاتي، أي إخفاء العروبة والتنكر لها، إلى حدّ كبير من القهر الخارجي، ما أتاح له البقاء والتناسخ طوال أعوام عديدة. ورغم أن المشروع الصهيوني كان علمانيا في أساسه، إلا أن حالة الفصام الثقافي لدى العرب اليهود ساهمت غير قليل في إبطاء عملية علمنتهم. كما دفعت بكثيرين منهم إلى مواقف معادية للعرب، وبالتالي إلى تفضيل اليمين الصهيوني، والذي كان أكثر فظاظة في عدائه تجاه المحليين.

***

إن الانعزال الثقافي، كظاهرة مركزية في سياسة الهويات لدى مجموعات اجتماعية، هو ظاهرة معروفة ومشهودة في علم الاجتماع الحديث، وقد أجاد بيير بورديو (Bourdieu) تحليلها. وتحفظ العرب اليهود وأحفادهم وتنصلهم من بقايا أصولهم الثقافية لم يكونا ظاهرة حصرية في إسرائيل. فبالإمكان الإشارة إلى ظاهرة مماثلة، وإن غير متطابقة، بين مهاجرين مغاربة ـ يهود غير قلائل قدِموا إلى فرنسا أو كندا. ورسّخت الرغبة الجامحة في عدم التعرض للتعريف كعربيّ، لدى عدد غير قليل منهم ـ ليس جميعهم بالتأكيد ـ ميولا سياسية معادية للمشرقية بصورة فظة، حتى في الجيلين الثاني والثالث أيضا.

صحيح أن الأسرلة السريعة خففت من حدة جزء كبير من الفوارق الثقافية المستوردة حقا، لكنها رسّخت أيضا غير قليل من التراتبيات التي نشأت في إبان قيام الدولة. فما هي هذه الأسرلة، وما هو مدى نجاحها في تغيير هويات «اليهودي الجديد»؟

---

٢ . ثمة مفارقة تاريخية أخرى: «الرامبام» (رابي موسى بن ميمون)، مثل مفكرين يهود آخرين في دول الإسلام خلال العصور الوسطى، كتب باللغة العربية بصورة أساسية (بتهجئة المشناه، بوجه عام).

عربة خاوية وعربة ممتلئة

التقى رئيس الحكومة الإسرائيلية، دافيد بن غوريون، في العام ١٩٥٢، بالحاخام أبراهام يشعياهو كرليتس (Karelitz)، المعروف بلقب «الرؤيا رجل». وقد انطبع هذا اللقاء في تاريخ الوقائع الإسرائيلية برسم حوار الطرشان الودي الذي دار بين الرجلين. وقد سأل رئيس حكومة «دولة اليهود» رئيس «معسكر الحريديم»: كيف سيعيش المتدينون والعلمانيون جنبا إلى جنب في ظل السيادة الجديدة، من دون أي مشاحنات أو صدامات؟. فما كان من الحاخام الحكيم، الذي لم يكن صهيونيا ولم يعتبر إسرائيل أصلا وإطلاقا «دولة يهودية»، إلا أن استند إلى قصة الجمل الواردة في أحد أسفار التلمود البابلي وأجاب بأن المنطق يقتضي أن تقوم العربة الخاوية، في سبيل ضيق، بإخلاء الطريق أمام العربة الممتلئة. فالصهيونية العلمانية خاوية من الناحية الثقافية، في حين أن اليهودية الدينية محملة وثقيلة.

غضب بن غوريون، وسأل ما إذا كان الحاخام لا يعتبر فرائض توطين البلد، فلاحة الأرض وحفظ الحدود مهمة ثقافية يهودية، خاصة وأن العلمانيين هم الأكثرية، وبوصفهم كذلك فهم المسيطرون على مقاليد الحكم في الدولة. وردّ الحاخام بأن الأشخاص المستعدين لتقديم أرواحهم في سبيل تأدية الفرائض لا يعيرون أدنى معنى أو اهتمام لرأي الأغلبية ولأعمال الحاكم الدنيوي.

بنظرة إلى الوراء، ضمن مرآة الزمان الذي انقضى، لا شك في أن «الرؤيا رجل» قد صدق. فمقابل عربة الدين اليهودية الممتلئة، كانت عربة اليهودية العلمانية، ولا تزال، خاوية. ومهما تعمقنا في الأمر أكثر، لا مناص من الاعتراف، كما أشرت آنفا، بأن ليس ثمة أي محمول ثقافي يهودي جامع وموحَّد غير ديني. وهذا هو أحد الأسباب المركزية للتناقضات العميقة في

الصهيونية ولتخاذلها التاريخي المتواصل أمام عالم التقاليد.

لكن، في العام ١٩٥٢ لم يكن هذا الحاخام البارع قادرا بعد على إدراك حقيقة أن المشروع الصهيوني قد أوجد عربة ثقافة إسرائيلية محددة تجد الصهيونية صعوبة كبيرة في الاعتراف بوجودها. وهي تصر، بكثير من التعسف وانعدام المنطق، على وصفها بأنها يهودية علمانية، بالرغم عن معرفتها الأكيدة أن من تعتبرهم يهودا يعيشون في بلدان أخرى ليسوا شركاء لها، على الإطلاق. وفي المقابل، يتبنى ثقافة «الرؤيا رجل» اليهودية ويتقاسمها الكثيرون جدا في أنحاء العالم.

كان الاشتراكيون القوميون من أوروبا الشرقية هم الذين أرسوا، على نحو رئيس، أسس إنشاء دولة إسرائيل. كان هؤلاء علمانيين تمردوا على اليهودية، لكنهم اضطروا منذ البداية إلى تبني رموز مركزية من رموز التقاليد الإيمانية، ومن ضمنها أيضا الوجدان اليهودي الداخلي الذي كان جزءا راسخا منها. وقد أصبحت هذه الرموز مقبولة من جميع تيارات الصهيونية، يسارها ويمينها، لاحقا. وتعود هذه الظاهرة الأيديولوجية-الذهنية إلى أسباب معقدة تكمن في طبيعة الصهيونية وأهدافها، منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى اليوم.

أولا، لكي تبرر استيطانها في فلسطين، كان يتعين عليها الاستناد إلى «التناخ»، الذي اعتبرته بمثابة صك الملكية «القضائي» على الأرض. وثانيا، لكي تؤكد «حقوقها التاريخية»، رسمت تاريخ الجاليات اليهودية المختلفة ليس بكونه توليفة فسيفسائية غنية ومتنوعة مكونة من مجموعات من المؤمنين اليهود في أنحاء آسيا، أوروبا وإفريقيا، وإنما كرواية سردية خطّية عن شعب عرقي يُزعَم بأنه طُرد من وطنه بالقوة وبأنه ظل يتوق إلى العودة إليها طوال ألفيّ عام. وقد استبطنت الصهيونية العلمانية، عميقا، الأسطورة الدينية حول نسل إبراهيم والأسطورة المسيحية حول الشعب الملعون والمهجّر، الذي طُرد بجريرة خطاياه. وقد نجحت في أن تنحت من كلتيهما هيئة إثنوقراطية لم يستطع زيفها الواضح - يكفي النظر إلى مظهر الإسرائيليين المتنوع للتأكد من ذلك - الحدّ من نجاعتها أو النيل منها.

وسعى المشروع الصهيوني سوية مع ذلك، ومن دون الوقوف على التناقض وتسويته، إلى خلق ثقافة جديدة تماما، مفصولة عن ماضي المنفى «الشتاتيّ». فمنذ أربعينيات القرن

الماضي، شاعت وازدهرت في اليشوف الصهيوني نخبوية إسرائيلية فريدة ومثيرة. ثم تعززت وتعاظمت في الخمسينيات والستينيات حتى أصبحت مهيمنة. وكان من دواعي الفخر في تلك السنوات، أن تكون إسرائيليا، أو عبريا على الأصح، بينما ساد احتقار صامت، محمّل بكثير من التلون، حيال التقاليد اليهودية القديمة. هاكم نموذجا واحدا من كثر: الميل إلى تغيير أسماء «يهودية شتاتية» الذي ساد أوساط النخب الثقافية والشباب المتعلم. ولم يقتصر الأمر على تحويل أسماء العائلات إلى «عبرية» خالصة، بل راح الأهالي الجدد يقلبون صفحات «التناخ» بحثا عن أسماء شخصية نادرة لمواليدهم الجدد، لا تشبه الأسماء اليهودية القديمة مثل موشيه، يعقوب، دافيد أو شلومو. كما قوبلت أسماء حاخامي التلمود «الغربية» من العصر القديم بالرفض المصحوب بالاشمئزاز والازدراء. ولقيت الاستحسان، بشكل خاص، الأسماء الكنعانية التي لم تكن، قطّ، جزءا من التراث اليهودي ولم تكن مستخدمة فيها. كل ما كان يذكّر بالمدارس الدينية أو ببلدات اليهود البائسة في أوروبا الشرقية كان مرشحا للشطب والمحو من الذاكرة القومية.

من دافيد غرين، المعروف ببن غوريون، مرورا بشمعون بيرسكي (Perski) المعروف اليوم ببيريس، وإسحق رابين الذي وُلد لوالده روبيتزوف (Rubitzov)، وانتهاء بإيهود باراك الذي كان بروغ (Brog)، وأريئيل شاينرمان (Scheinermann) الذي تحول إلى شارون، وبنيامين نتنياهو الذي ولد والده باسم ميليكوفسكي (Mileikowsky)، وشاؤول موفاز الذي كان يسمى في طفولته شهرام موفازكار (Shahram Mofazzakar)، فإن جميع زعماء إسرائيل تقريبا، أو جميع آبائهم الطلائعيين، خلعوا عن أنفسهم أسماء عائلاتهم الأصلية التي تبناها اليهود منذ بدء اعتماد سجلات الأحوال المدنية الحديثة. فقد كانت تلك أسماء اليهود الضعفاء العاجزين الذين اقتيدوا كالقطيع إلى الذبح في المعسكرات، أو أولئك الذين اضطروا، مرغمين، إلى محاكاة الثقافة الإسلامية. وكان من المهم والجدير تكوين إنسان عبري جديد، قوي ومنيع، من الناحيتين الجسدية والروحانية.

وقد شكلت الهوية العبرية، التي صُمّمت قبل قيام الدولة، إلى حد كبير أيضا، انفصالا ثقافيا عن جموع المهاجرين الذين بدأوا يحتلون ويشغلون الطبقات والمرتبات المتدنية والشعبية

في إسرائيل. وكانت «العبرانية»، في جوهرها، ممارسة ميّزت النخب الثقافية، السياسية والعسكرية، وهي التي بلورت الحلبة الجماهيرية العامة. وفي المقابل، لم يكن مواطنو إسرائيل في تلك السنوات إسرائيليين تماما، كان معظمهم من اليديشيين أو المغاربة، ولم يتكلموا العبرية الحديثة إلا بصعوبة فائقة وكانت الثقافة العُلوية الجديدة بعيدة المنال بالنسبة لهم. وكان بعضهم قد خضع لعملية العلمنة في أوروبا الشرقية، غير أن آثار التراث اليهودي، اليديشي والعربي، كانت لا تزال ملتصقة بهم وشكلت لهم عزاء وقاعدة فولكلورية يومية في حياة الهجرة القاسية.

وإلى جانب ذلك، واصلت النخب إنتاج الثقافة الجديدة ونشرها، بعزم وقوة، والتي أصبحت مهيمنة في علاقات القوة السياسية والفكرية. أما الأداتان المدمجتان اللتان كانتا تحت تصرفها، في عهد ما قبل التلفزيون، فتمثلتا في جهاز التعليم والجهاز العسكري (والصحافة المكتوبة، بدرجة أقل). ففي المدارس، ألزم المعلمون طلابهم على التحدث بالإسرائيلية، وعلى القراءة بالعبرية ودرّسوهم «التناخ» بوصفه كتاب البطولات التاريخية العلمانية. وكانت قد انتشرت، قبل قيام الدولة، مقولة «من التناخ إلى البلماخ» (المقصود البلماح: بلوغوت ماحتس ـ السرايا الصاعقة، وهي القوة العسكرية النظامية لمنظمة «الهاغناه» ـ المترجم)، أي أن الأمر المهم حقا في التاريخ هو السيادة العبرية المتخيلة في العصر القديم والسيادة الإسرائيلية الحقيقية في العصر الحديث. وكانت البطولة القديمة والجرأة الحالية سمتيّ التشخيص الأساسيتين للصابرا الرجولية. أما اليهودية الضعيفة، التي عاشت في «منتصف» مسار التاريخ، فقد كانت عديمة الأهمية، نسبيا، واعتُبِرت جسرا هشا وضيقا اقتصر دوره على التوصيل إلى الانبعاث المتجدد.

وأدى الجيش الإلزامي دورا تثقيفيا ليس أقل أهمية، إذ شكّل في موازاة التعليم الإلزامي، بوتقة صهر عظيمة لإنتاج هوية، بل ثقافة أصيلة. وقد حصل اتصال النخب الأكثر جرأة مع جمهور المهاجرين من خلال هذا الجهاز الهرميّ، بشكل أساس. وإذا كنتَ قد اعتدتَ على التحدث مع والديك باللغات الأجنبية المحتقَرة (اليديش أو العربية) حتى ما قبل التجند في الجيش، فستصبح لدى تخرجك منه، بعد عامين ـ ثلاثة أعوام، إسرائيليا أكثر وليس جنديا

أفضل فقط. وهكذا تبدأ بتعليم والديك لغة الدولة وتساهم في أن يصبحوا خجولين بثقافتهم القديمة عديمة القوة العسكرية والسؤدد القومي. وكان من شأن الحصار المتواصل الذي كانت تنوء إسرائيل تحته والانتصارات العسكرية التي حققتها في حروب ١٩٤٨، ١٩٥٦ و١٩٦٧ أن زادت في تعظيم الإسرائيلية وإعلاء شأنها وتقديس عبادة القوة، فضلا عن تعزيز قوة النخب ذات الأقدمية.

إن السرعة التي تبلورت بها الثقافة الإسرائيلية جديرة بالتقدير والإشادة. فإذا كان تصميم ثقافة قومية قد استدعى، في دول أخرى، سيرورة طويلة ومتواصلة نسبيا، فقد تسنى في إسرائيل، بفضل كونها مجتمع مهاجرين بالكامل، فرضُ لغة وثقافة جديدتين تماما في غضون عقدين فقط. ومن الواضح أنهما لم تلقيا المقدار نفسه من القبول لدى جميع شرائح السكان، وأن الثقافات الثانوية واصلت وتواصل بقاءها حتى يومنا هذا، لكن الإنجازات الثقافية التي حققها المشروع الصهيوني، والتي لم تعادلها سوى الإنجازات الزراعية والعسكرية، كانت غير مسبوقة.

إن الثقافة الرفيعة ـ الأدب، الغناء، المسرح والسينما في نهاية المطاف أيضا ـ أثمرت منتجات غنية ومثيرة. فإلى جانب الإلغاء العلني للتقاليد السابقة وتآكلها، عرفت الإسرائيلية كيف تستبطن، سراً، غير قليل من تراث هذه التقاليد. وسَبَت النغمات الموسيقية الجديدة، التي نأت عن الغناء اليديشي وعن الألحان العربية ومالت إلى الأغاني الروسية أكثر، قلوب الصابرا الشباب. وكان الغناء الجماعي في كل لقاء علني يستبدل الصلاة القديمة. وحتى لباس الإسرائيليين، أيضا، كان آنذاك، قبل عصر العولمة، مختلفا تماما عن لباس يهود أوروبا الشرقية أو شمال إفريقيا. فقد تمت ملاءمته لأحوال الطقس المحلية وكان شبيهاً جدا، إلى درجة مذهلة، باللباس الاستعماري النموذجي المنتشر في أرجاء الإمبراطورية البريطانية، مضافا إليه طاقية «الصابرا» المتميزة. وأصبح الجميع في الثقافة اليومية التي سادت في السبعينيات، يتحدث اللغة العبرية ـ الإسرائيلية، بلهجات مختلفة، ويتبنى عادات غذائية متماثلة، استُنسِخ معظمها من الفلسطينيين، وكان يبدو ـ وربما في الظاهر فقط ـ أن المشروع الثقافي القومي قد اكتمل.

ليس ثمة شك في أن الصهيونية نجحت في نحت شعب جديد ذي سمات متميزة ولغة جديدة خاصة به، شعب منفصل عن الممارسات اليهودية طويلة الأعوام وعن المفاهيم غير القومية العميقة التي استبدت به. وقد أصبح لهذا الشعب وطن، حتى وإن لم يعرف حدوده الواضحة والدقيقة. وأصبحت لهذا الشعب ثقافة عامة موحدة، حتى وإن لم يكن مدركا لمدى عدم كونها يهودية تماما.

***

قاد انتصار الثقافة الإسرائيلية واللغة العبرية الحديثة، بدءا من منتصف السبعينيات، إلى نوع من الاسترخاء والسكينة. فقد توقفت مركبّات ثقافية مختلفة من الماضي الييديشي أو العربي عن تهديد منظومات القوة القومية. وأصبحت تُعتَبر تعبيرات فولكلورية غير ضارة يمكن تحملها، بل وحتى يمكن تنميتها بحذر. وأصبح الحنين إلى «الييديش كايت» (بالييديش: «أسلوب الحياة اليهودي»، وهو تعبير يعني خلاصة كينونة اليهود الأشكناز، وخاصة من متحدثي الييديش التقليدية، في أوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى ـ المترجم) شعبيا وشرعيا. كما تم دمج المزيد والمزيد من الأنغام العربية في الموسيقى الإسرائيلية الجديدة فأصبح يطلق عليها الغناء الشرقي، أو الشرق أوسطي.

حتى الجينوسايد الذي تعرض له يهود أوروبا، الذين كانوا يُعتَبَرون خانعين وعاجزين ـ كانوا يسمّون، لردح طويل من الزمن، «الصابون» أو «قطيع الذبح» ـ والذي أبقِي عليه مخبأ في مرتبة دنيا نسبيا من هرم الذاكرة القومية، تم استلاله بعد النصر الكبير في حرب العام ١٩٦٧ ووضعه في مرتبة متقدمة ومحترمة. وقد كانت أسباب التحولات التي حصلت في هيكلة الذاكرة، في هذه الحالة، أكثر تعقيدا.

لنتذكر جميع المقتولين

ألقى الشاعر يوليان طوفيم (Tuwim) في نيسان ١٩٤٤، مرثية مؤلمة بعنوان «نحن، يهود بولندا...»، وقد استهلها بالكلمات التالية:

«لو اضطررتُ إلى إرساء قوميتي، أو شعوري القومي على الأصح، فإنني بولندي لأسباب جدّ بسيطة، بدائية تقريبا، بعضها غير عقلاني، لكن من غير سمات «صوفية». أن تكون بولنديا، فهذا ليس شرفا، لا مجدا ولا استحقاقا. إنه الحكمُ بالتنفس. ولم أصادف في حياتي شخصا يمكن أن يفاخر بأنه يتنفس. بولندي ـ لأنني ولدت في بولندا، تربيت، ترعرعت، تعلمت، وفيها كنت سعيدا وتعيسا. لأنني أريد العودة من منفاي إلى بولندا تحديدا، حتى لو ضمنوا لي ملذات جنة عدن في مكان آخر.... وردا على هذا، أسمع أصواتا تقول: «حسنا، ولكن إذا كنت بولنديا، فلماذا «نحن، اليهود»، إذن؟». ويشرفني أن أجيب: بسبب الدم. ـ «نظرية العِرق؟!» ـ كلا، على الإطلاق. ليس نظرية العرق، بل العكس تماما. ثمة نوعان من الدم: هذا الذي يجري في العروق وذاك الذي يجري من العروق نحو الخارج».

أصبح طوفيم في العام ١٩٤٤، يهوديا من جرّاء الدم الذي أريـق. قبل الحرب العالمية الثانية، لم ينكر الشاعر أصله اليهودي، رغم أنه كان يفضل دائما اعتبار نفسه بولنديا وأبدى نفورا من العنصريين الصهيونيين ومن المصابين برهاب اليهود من الكاثوليكيين الذين كانوا يسعون إلى حرمانه من هويته القومية وإرساله إلى فلسطين. وعلى الرغم من تفضيله العودة إلى وطنه ثانية، مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، إلا إن الموت الأسود والمصنّع الذي غمر أوروبا قاده إلى تعريف نفسه بأنه يهودي، في العام ١٩٤٤. وقد شكل ذلك سببا وجيها. فكذلك الملايين الذين تم ذبحهم بسبب أصلهم لم يعودوا قادرين على ترك أرضهم أو تغيير

أصلهم ـ بفضل هتلر ظلوا يهودا إلى الأبد.

أذكر أنني قرأت، في مرحلة مبكرة من حياتي، مرثية طوفيم الحزينة هذه، وأنها ساهمت في ترسيخ وعيي اليهودي وتعزيزه. وقد قررت، آنذاك، أيضا، تبني مقولة إيليا أهرنبورغ (Ehrenbourg) الذي أعلن، في نهاية تلك الحرب، أنه سيظل يهوديا حتى آخر اللاساميين على وجه البسيطة. ولكن مع مرور الأعوام، ونتيجة التطرف في السياسات الإسرائيلية، وبقدر أكبر حيال التحولات الحاصلة في سياسة الذاكرة التي اتبعتها، أخذت ثقتي بتعريف هويتي تهتز وتتضاءل.

وسأروي هنا حادثة واحدة من حوادث كثيرة سرّعت تكوّن الشروخ في داخلي. أذكر أنه في أحد أعوام دراستي لدرجة الدكتوراه في معهد الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية في باريس (E.H.E.S.S)، تقرر عقد مؤتمر أكاديمي، هو الأول من نوعه في فرنسا، حول الإبادة النازية. لكن ثائرة ممثلي الجالية اليهودية الذين شاركوا في تنظيم الحدث وتمويله ثارت على توجيه الدعوة إلى محاضرَة غجرية للمشاركة في المؤتمر، وعارضوا اشتراكها بصرامة. وفقط بعد تدخل المؤرخ بيير فيدال ـ ناكيه (Vidal-Naquet) وجهود عديدة، حصلت الباحثة «الغريبة» على إذن لإلقاء محاضرتها. وقد لازمني الشعور بالغثيان، الذي تملكني في أعقاب هذه الحادثة، وقتا طويلا جدا. والحقيقة أنني فوجئت كثيرا في البداية، إذ لم أكن قد أدركت آنذاك في أوائل الثمانينيات بعد، كنه الرغبة الجامحة بالحصرية اليهودية على جريمة الإبادة النازية.

اعتدت لاحقا، في أعقاب حوادث مماثلة، على طرح السؤال التالي، في ظروف مختلفة ـ مأدبات عشاء، دروس كنت ألقيها في الجامعات ومحادثات عابرة: «كم إنسانا قتل النازيون في معسكرات التركيز والإبادة وفي عمليات الذبح غير التقليدية الأخرى التي نفذوها؟». وكان الجواب يأتي دائما وبدون أي استثناء: ستة ملايين. وعندما كنت أؤكد، مرة أخرى، أن سؤالي كان «كم إنسانا؟»، وليس «كم يهوديا؟»، كانت المفاجأة، إلى حد الصدمة، تتملك محدثيّ، ونادرا ما كان أحدهم يعرف الجواب.

إن كل مَن يشاهد فيلم «الليل والضباب»، الفيلم الوثائقي القصير والناعم الذي أخرجه ألين رينيه (Resnais) وتم إنتاجه في أواسط الخمسينيات من القرن الماضي، يمكنه تقديم

جواب عن السؤال: أحد عشر مليون قتيل! لكن عدد الضحايا غير العسكريين هذا في إبان الحرب العالمية الثانية، تم محوه من القرص الصلب المحفوظة عليه الذاكرة الجماعية الغربية. نعم، بالتأكيد، قد يكون عدد الضحايا عشرة ملايين، وليس أحد عشر مليونا. ويمكن الافتراض بأن عدد الضحايا اليهود من بينهم ـ كما افترض راؤول هيلبرغ (Hilberg)، الباحث الكبير في شؤون الجينوسايد ـ لم يكن ستة ملايين، بل ما يقرب من خمسة ملايين. لكن هذه الفوارق العددية ليست جوهرية. إن الأمر المهم في موضوعنا هنا هو: لماذا اختفى، تماما وكليا، الرقم «العام» وكيف لم يبق ولم يُحفَظ سوى الرقم «اليهودي»؟

إن أحد العيوب في فيلم رينيه المثير هو حقيقة أن كلمة «يهود» تُذكَر خلاله مرتين فقط. فالرواية المركزية تدور حول جهاز الإبادة النازي وتعرض أن ضحاياه الأساس هم سجناء سياسيون، رجال المقاومة أو أسرى حرب من السوفيات. وللأسف الشديد، لا يستطيع المشاهدون الاستدلال، من خلال حبكة الفيلم، على طابع وطبيعة عملية شيطنة اليهودي المتخيَّل والهوس الموسوس النازي حياله. وقد كانت حقيقة أن نصف الضحايا غير التقليديين قد تم تعليمهم من جانب الجلادين بوصفهم «يهودا»، ذات وزن جاد ومركزي في فهم مشاريع الكراهية والإبادة في إبان الحرب العالمية الثانية. وحتى لو لم يكن كثيرون جدا من الضحايا «المفضَّلين» يعتبرون أنفسهم يهودا، على الإطلاق، بل أصروا على أنهم فرنسيون، هولنديون، بولنديون أو ألمان، فقد تم ذبحهم بسبب تعليمهم من جانب القتلة بأنهم ينتمون إلى شعب ـ عِرق يهودي. وقد تمثلت نقطة ضعف رينيه الأساسية في الحوار «الأنيق» حول المسألة الإشكالية.

إن الرغبة القوية لدى المخرج ـ وهي ما منعه الرقيب للأسف الشديد ـ في كشف قبعة ذات حاجب (للشمس) كان يعتمرها شرطي فرنسي في معسكر اعتقال تكفّر قليلا عن نقطة الضعف «اليهودية» لدى رينيه ـ ففي الخمسينيات، كان عدد كبير من الذين تعاونوا مع النازيين لا يزال على قيد الحياة وكانت ثمة حاجة إلى جرأة كبيرة لعرض هذه الحقيقة غير المريحة على الإطلاق.

ظهر في العام ١٩٨٥، بعد ثلاثين عاماً بالضبط من إنتاج «الليل والضباب»، فيلم طويل

ومتعب لمخرج فرنسي آخر. إنه فيلم «شوءا» (الهولوكوست) للمخرج كلود لانتسمان (Lanzmann) الذي سرعان ما تحوّل إلى ما يشبه الأيقونة لذكرى المذبحة الأكبر في ثقافة السينما في إبان نهاية القرن العشرين. وربما كان من الممكن أن نغفر لهذا المخرج إخفاءه، آنذاك، حقيقة أن جزءا كبيرا من تمويل فيلمه تحقق بواسطة شركات وهمية أقامها هو نفسه في سويسرا، بغية استخدام الأموال التي منحته إياها حكومة إسرائيل سرّاً. وربما كان بالإمكان، أيضا، غض الطرف عن حقيقة أنه قد بدا، في بعض اللحظات، وكأن أعداء اليهود الأساسيين في تلك المأساة المريعة كانوا من الفلاحين البولنديين الجاهلين والبؤساء، أكثر بكثير من النازيين الألمان المتحضرين، غير أن مجرد خلق تتابع وانتظام بينهم شكل، بحد ذاته، تشويها تاريخيا غير محتمل.

لكن من الصعب أكثر بكثير التعامل برضى مع حقيقة مذهلة أخرى تتمثل في أنه طوال فيلم فرنسي يمتد لنحو تسع ساعات عنوانه «شوءا» ـ بالعبرية على نحو مشدّد عليه بأحرف أجنبية ـ لم يرد أدنى ذكر لأي قطار، ولو واحد، وصل من فرنسا! وليس في هذا الفيلم ولو قبعة واحدة ذات حاجب على رأس رجل سلطة فرنسي. وهو لا يبرز، قط، اللامبالاة النسبية التي ميزت أغلبية سكان مدينة الأنوار، ومن بينهم أيضا المثقفون الذين كانوا يقضون أوقاتهم في مقهى دي فلور (De Flore) بينما كان أطفال يهود يُساقون إلى ستاد الشتاء في تموز الحار العام ١٩٤٢. وقد تم، في نهاية المطاف، محو الدور التاريخي الذي لعبه نظام فيشي من الفيلم الفرنسي محوا تاما، ما ساهم، بالطبع، في جعله أيقونة تذكارية مقبولة ومثار إعجاب في فرنسا خاصة، وفي العالم الغربي عامة. وقد كان من المريح لكثيرين التفكير بأن صناعة الموت قد جرت في مكان ما، بعيد، في الشرق اللاسامي والظلامي، وسط فلاحين كاثوليكيين جهلة وغليظي القلوب، وأنه لم تكن لها أي علاقة بأوروبا الجميلة، المتنورة والمتحضرة.

أكثر من هذا، لم يكن من السهل عليّ كإسرائيلي يشاهد عمل مخرج يعرّف نفسه بأنه يهودي، القبول بحقيقة أن الفيلم التذكاري الطويل، الذي يتوقف عند التفاصيل بصورة موسعة، لم يأت على ذكر أي من الضحايا الآخرين، عدا اليهود، في مشروع الموت الضخم هذا. فمثلا، بالرغم عن أنه جرى تصوير الفيلم، بغالبيته، في بولندا، إلا أنه لا يجد مكانا

لتعريف المشاهدين بحقيقة أن نحو خمسة ملايين بولندي قد تعرضوا للذبح - نصفهم من أصل يهودي ونصفهم الآخر من أصل كاثوليكي. كما لم يجد صاحب الفيلم مكانا للإشارة إلى حقيقة أن معسكر أوشفيتس أقيم، بداية، لاستيعاب سجناء بولنديين غير يهود. ولذا لم يكن من المستغرب أن يستطيع رئيس أميركي مثل باراك أوباما التحدث، بثقة، عن معسكر إبادة بولندي.

من المؤكد أن الأغلبية المطلقة من البولنديين اليهود قد تعرضت للإبادة والمحو عن أرض بولندا، وللحرق عليها أو للدفن فيها، بينما بقيت أغلبية البولنديين الكاثوليكيين على قيد الحياة تعيش فيها بعد الحرب. وهذا فارق جاد ومهم جدا في الموازنة التي يمكن إجراؤها بين الأموات والأحياء. لكن، من الناحية النسبية، كان عدد الغجر (Roma) الذين تعرضوا للقتل من بين مجمل جالياتهم قريبا من عدد الضحايا اليهود من بين مجمل اليهود في أوروبا، بينما لا ذكر لهم في «شوءا» اللاانتسماني على الإطلاق.

لم يكن المخرج الفرنسي، للأسف الشديد، وكيل الذاكرة الوحيد الذي انتهج انتقائية «إثنية» في هيكلة ذكرى المقتولين. ثمة قلائل سبقوه إلى ذلك، وثمة كثيرون ساروا في عقبيه. كذلك هو «صمت» إيلي فيزل (Wiesel) المطبق، «النازل» الإسرائيلي («النازل»: صفة تطلق على اليهودي الذي يغادر إسرائيل للإقامة والاستقرار في دولة أخرى، غريبة على الأغلب - المترجم) الذي حاز جائزة نوبل للسلام تقديرا لتخليده الحصري للموت اليهودي، ولم يأت على أي ذكر لموت الآخر. منذ الربع الأخير من القرن العشرين، زال واختفى، تماما تقريبا، جميع الضحايا الذين لم يُصَنّفهم النازيون بأنهم «ساميون». أصبح القتل المصنّع مأساة يهودية حصرية. خلت الذاكرة الغربية بشأن معسكرات التركيز والإبادة، بصورة كلية تقريبا، من المتضررين نفسيا، ومن الغجر، ومن أعضاء حركات المقاومة السرية الشيوعيين والاشتراكيين، ومن شهود يهوه، ومن المثقفين البولنديين، ومن المفوضين والضباط من الجيش الروسي وغيرهم. وباستثناء مثليي الجنس، ربما، عمدت جميع شبكات الذكرى المهيمنة إلى محو جميع الذين قتلهم النازيون، في موازاة القتل المنهجي لليهود وأحفادهم. لماذا حدث هذا وكيف تساهم هيكلة هذه الذاكرة الجديدة في صوغ طابع الهوية اليهودية الراهنة؟

كانت ذكرى إبادة اليهود في نهاية الأربعينيات، وعلى امتداد الخمسينيات والستينيات، تقبع خجولة في الهوامش الثقافية والفكرية الغربية. وعلى الرغم من محاكمة آيخمان، المهمة في حدّ ذاتها، إلا إنها لم تُدرَج حتى في مناهج التدريس في دولة إسرائيل حتى العام ١٩٧٠. وكانت تعتبر في نظر المؤسسات الرسمية اليهودية في العالم موضوعا غير شعبي إطلاقا، والتزمت الحذر لئلا تضطر إلى البحث فيه ومعالجته. وكانت أسباب ذلك عديدة ومتنوعة، لكنني سأوجز هنا اثنين منها فقط:

يكمن السبب الأول، في رأيي، في أهواء التاريخ الذهني ونزعاته: في الأعوام الأولى التي تلت الحرب، كانت صورة الناجي من المعسكرات سلبية بشكل خاص بين أوساط جماهيرية واسعة. فقد جزمت الآراء المسبقة والقاسية في تلك الفترة بأنه إذا كان ثمة من أفلح في النجاة من المحرقة، فمن المؤكد أنه فعل ذلك على حساب الآخرين الذين قُتلوا. ومن المعروف أنه قبل تحويل النازيين البشرَ إلى رماد، حاولوا أن يجعلوا منهم رعاعا لا يربطهم أي تضامن إنساني. وقد تلذّذ النازيون بذلك غير قليل، نظرا لما مثّله ذلك من برهان على فلسفتهم الداروينية. وبغية تحقيق هذه الشيطنة، دقوا الأسافين بين الأسرى وحرضوهم على بعضهم بعضا، شجعوا السرقات، مما أدخل المتعة في نفوس السجانين، ومساعديهم، من انعدام التضامن مع الآخرين والبهيمية العامة. وثمة حالات غير قليلة معروفة في مطلع الخمسينيات، هاجم خلالها خارجون من المعسكرات بعضهم بعضا من خلال الاتهامات المتبادلة بسلوكيات دنيئة في المراكز القميئة. ولم يكن من الممكن في تلك الأعوام، تقريبا، مقابلة ناجين وتوثيق تجاربهم ومعاناتهم بالصوت والصورة، إذ إن كثيرين منهم كانوا يشعرون بالخجل لمجرد نجاتهم.

أما السبب الثاني للصمت الطويل فمصدره السياسة الدولية، بالذات: خلال أعوام الحرب الباردة، وظف الغرب كل طاقاته من أجل إعادة ألمانيا إلى حضن عائلة الشعوب «الديمقراطية». ونظرا لكون النخب في تلك الدولة، والتي لم تكن اشتراكية أو شيوعية، كانت تتكون من أبناء الجيل الذي عايش فترة هتلر وأعجب به، فقد اختار الغرب نشر وتكريس حالة من النسيان الموجّه والحذر. أفلام أميركية عديدة في تلك الفترة «بيّضت» صفحة «الفيرماخت» (القوات المسلحة في ألمانيا في إبان الحرب العالمية الثانية ـ المترجم)

وطبّعوها، كما تركزت كتب كثيرة في سرد المقاومة الألمانية للنازيين والتأييد الخفي لها. وكان المؤلفون والمبدعون المنتمون إلى اليسار السياسي، بصورة أساسية، هم الذين تجرأوا، بـ «عدم مسؤولية»، على خرق قوانين لعبة الذاكرة الكلبية الانتقائية هذه.

بدأت العلاقة تجاه المحرقة المرعبة تتغيّر ببطء في نهاية الستينيات. واكتسبت الحرب الباردة ألوانا جديدة وأضحت ألمانيا، بعد دفعها تعويضات مالية لإسرائيل وللناجين من المحرقة، منخرطة تماما في الثقافة السياسية الغربية وفي المنظومة العسكرية التابعة لحلف شمال الأطلسي (الناتو). كما أصبحت إسرائيل، في الفترة ذاتها أيضا، الشريك الأكثر إخلاصا لحلف الناتو وللولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

وساهمت حرب العام ١٩٦٧، أيضا، في حصول هذا التحول. فالنصر العسكري السريع الذي حققه الجيش الإسرائيلي أزال «الخجل» العميق الذي رافق النخب الإسرائيلية منذ قيام الدولة. وإذا كان السير مثل «قطيع إلى المسلخ» قد شكل، حتى ذلك الحين، نموذج الضدّ لتصميم «الصابرا» مواليد البلد، فقد تغيرت الآن استراتيجيا تشبيهات الماضي بشأن الخراب. أصبحت إسرائيل قوة عظمى-صغيرة حقا، لكن قوية تسيطر على شعب آخر بواسطة احتلال عسكري متواصل ومؤلم. وبدلا من إخفاء ضعف ضحية الأمس اليهودية، بدأوا يمجدونها الآن ويعتبرونها شهيدا متميزا. وجرى التقليل من دور البطولات والمقاومة في كتب التاريخ، بينما تم الإبقاء، أساسا، على الضحايا اليهود في المذبحة التاريخية، والذين لا يجوز مقارنتهم، بأي حال من الأحوال، مع ضحايا جرائم أخرى في التاريخ.

إن الحيز الهامشي الذي احتله «اليهودوسايد» (إبادة اليهود) في ذاكرة الحضارة «اليهودية ـ المسيحية»، حتى الآن، كان غير محتمل، ومن المهم أخلاقيا تحوّله إلى مركّب مركزي في الموقف الأوروبي حيال الحرب العالمية الثانية. لكن السياسة الصهيونية واليهودية الزائفة الجديدة كانت تحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك. فهي لم تكتف بحفر ذكرى القتلى في قلب الوعي الغربي، بل طمعت بالتميز والتفرد، بالحصرية والملكية القومية المطلقة على الألم. وبدأت في تلك اللحظة ما يطلقون عليها، بحق، اسم «صناعة الهولوكوست»، التي ابتغت إيصال ألم الماضي إلى حده الأقصى، ثم استثماره لتحقيق أقصى ما يمكن من الربح السياسي،

بل والاقتصادي أيضا.

وتم في سبيل ذلك، إخفاء جميع الضحايا الآخرين تقريبا، بصورة تدريجية، واستأثر الجينوسايد بالحصرية اليهودية. وأصبح محظورا، منذ الآن أيضا، إجراء أي مقارنة مع عمليات إبادة جماعية تعرضت لها شعوب أخرى. وحين طلب أحفاد الأرمن، على سبيل المثال، إضافة يوم إلى التقويم الأميركي لإحياء ذكرى المجزرة الجماعية التي نفذها الأتراك بحقهم، انضم اللوبي المؤيد للصهيونية إلى الأتراك في محاولة منع ذلك. فقد تقزمت أي جريمة ارتكبت، سواء في الماضي أو في الحاضر، أمام مذبحة اليهود الكبيرة في الحرب العالمية الثانية. وأكثر من هذا، أصبح القتلى اليهود منذ الآن، وبسبب أصلهم اليهودي، لا يشبهون أي قتلى آخرين. فالذين يظهرون في «قائمة شندلر» للمخرج ستيفن سبيلبيرغ (Spielberg)، كما نجوم «شوء» للمخرج لانتسمان، أصبحوا ذوي سمات وقدرات فريدة ومتميزة.

لقد تحقق طموح هتلر بإخراج اليهود من إطار الإنسانية «الطبيعية» بصورة لئيمة وفاسدة في سياسة الذكرى التي اعتمدتها إسرائيل وأنصارها في أنحاء العالم الغربي. ومعنى هذا، أن الخطاب الصهيوني قد شدد، أكثر فأكثر، على تميز الضحية الأبدية، لا تميز الجلاد، تميز اليهودي لا النازي. وعليه، فثمة جلادون كثيرون جدا مثل هتلر، لكن لم يكن ثمة ضحايا مثل اليهود في الماضي، ولن يكون في المستقبل أيضا. وآنذاك، جرى تشبيه جمال عبد الناصر المصري بأنه هتلر جديد، ثم استبدلوه بياسر عرفات الفلسطيني، وصدام حسين العراقي، ثم أدى الدورَ أخيراً محمود أحمدي نجاد الإيراني. في مثل هذا الفهم، وفي مثل هذه البنية من الذاكرة، لم يكن المتميزون والفريدون في تاريخ القارة الأوروبية ما بعد عصر التنور هم منظمو صناعة الموت النازيون، بل المذبوحون والملاحَقون من أصل يهودي، فقط لا غير.[1]

***

١ . تعمدت التأكيد «في القارة الأوروبية»، نظرا لأن الحدثين المرعبين الكبيرين الآخرين اللذين وقعا في العصر الحديث، ما بعد عصر التنور ـ الاستعمار / الكولونيالية والستالينية ـ وقعا خارج القارة نفسها، بصورة أساسية. والحقيقة في نظري أنه إذا كان ثمة أناس متميزون وفريدون في حقبة الملاحقات والقتل، فقد كان هؤلاء هم «المستقيمون بين الأمم» (لقب كان يطلق على غير اليهود الذين نشطوا من أجل إنقاذ اليهود من براثن النازية، وسط تعريض أنفسهم هم للخطر ـ المترجم). وكما هو الحال في التاريخ دائما، فقد كان هؤلاء قلة قليلة.

منذ السبعينيات، أيضا، كبر معسكر أحفاد بقايا الجينوسايد من اليهود واتسع، وأصبحوا جميعهم يريدون، الآن، الانتماء إلى الناجين. أصبحت جماهير غفيرة من الأميركيين من أصل يهودي ممن لم يكونوا في أوروبا في إبان الحرب العالمية الثانية ولم يبدوا أي تضامن حقيقي مع المقتولين خلال المذبحة، ورثة مباشرين لناجين من محارق الموت. وأصبح أبناء اليهود من العراق ومن شمال إفريقيا يعتبرون أنفسهم، منذ الآن، شركاء في معسكر ضحايا النازية الآخذ في الازدياد والاتساع. كما ظهر في إسرائيل في تلك الأعوام أيضا، تعبيران هما: «جيل ثان على المحرقة» و«جيل ثالث على المحرقة» ـ وهو رأس المال الرمزي المستخلص من آلام الماضي ويُفترض أن ينتقل، بالوراثة، مثل أي رأسمال آخر بالضبط.

ظهر بدلا من الهوية الدينية القديمة المتمثلة في «الشعب المختار»، طقس علماني حديث ومتعدد الفوائد، لا يقتصر على «ضحية مختارة» فحسب، بل يشمل «ضحية حصرية» أيضا. إن هذا المحور في هوية «اليهودية العلمانية»، على ما فيه من بُعد أخلاقي استعراقي، يشكل مركّبا مهما في التعريف الذاتي بالنسبة لكثيرين ممن يعرّفون أنفسهم بأنهم يهود. وسأعود إلى هذه المسألة لاحقا. وهو الذي ساهم، أيضا وضمن أشياء أخرى، في عدم الراحة المتعاظم الذي ينطوي عليه استمرار تعريف نفسي بأنني يهودي علماني. وكانت ثمة عوامل أخرى بالطبع.

أقتُل تركياً واسترِح!

ثمة طرفة ييديشية معروفة، تنضح تهكما ذاتيا، تجلد الطابع المتقوقع في الأخلاق اليهودية. تقول الطرفة إن أماً يهودية ترافق ابنها الذي سيجند في جيش القيصر (الروسي) في حرب القرم خلال القرن التاسع عشر. وفي دائرة التجنيد، وبينما هي تودعه، تدسّ له شطائر في الحقيبة وتهمس في أذنيه: «أقتُل تركيا ولا تنسَ الجلوس لتناول الطعام بعد ذلك على الفور». «حسنا، يا أمي» رد الشاب. ثم تلف رقبته بشالٍ سميك وتضيف: «وحين تطلق النار على التركي، إياك أن تعرّض نفسك للريح»! «حسنا، يا أمي»، يرد الابن. «والأهم، عليك أن تخلُد إلى الراحة بعد كل مرة تنقض فيها وتقتل الأتراك». «بالتأكيد»، يقول المجند الجديد. وفجأة، يتذكر ويسأل بتردد: «أمي، وماذا لو قتلني التركي؟». فتفتح الأم عينيها الكبيرتين باندهاش وتسأل: «لماذا يقتلك؟ أي أذى سببتَ له كي يقتلك؟».

حدث لي أمر غريب في العام ١٩٩٩، في أثناء طقس تقليدي عشية عيد الفصح (العبري) في سان فرانسيسكو بصحبة أقرباء بعيدين، كانوا هم أيضا من أحفاد شعب الييديش. فبما أن معظم المشتركين كانوا من الناطقين بالإنكليزية، ألقيت عليّ أنا بالذات مهمة قراءة بعض النصوص الخاصة بالعيد من «التناخ» ـ وهو الأمر الذي كنت أتجنبه باستمرار ـ ثم ترجمتها بصوت مرتفع للغة الأميركيين. وكما هو معروف، فمن المتبع في طقوس الفصح التقليدية إثارة اهتمام الأطفال بشكل خاص، ولا سيما أن القصة المركزية ذات الشأن معدة، بالأساس، لتثقيفهم وحقنهم بجرعات كبيرة من «الذاكرة» اليهودية. وبناء على هذا، فقد أخذت وظيفة المعلّم المربي، للمرة الأولى في حياتي، على محمل الجدية، ثم أظهرتُ إبداعا زائدا وشدّدتُ على رسالة الحرية في القصص التاريخية. وكان الفرح عارما ما بين ضربات المصريين الشديدة

واحتساء النبيذ السلس.

واصلت ابنتي- وكانت في الخامسة من عمرها آنذاك- في طريق العودة إلى منزلنا، في عتمة السيارة، طرح أسئلة صعبة تتعلق بالضربات العشر التي أنزلها الرب بالمصريين الأشرار. الدم في الضربة الأولى، هل تدفق عبر الحنفيات، أم في الجداول فقط؟ هل شربوه حقا؟ ماذا فعلت الضفادع للناس بالضبط؟ هل كان القمل كبير الحجم أم صغيره؟ وما إلى ذلك. صحيح أن الطفلة كانت نصف نائمة، لكنها نجحت في إيصال أسئلتها الصعبة حتى الضربة العاشرة، الأكثر صعقاً في قصة الخروج من مصر. ماذا يعني موت الأطفال البكور بالضبط؟ هل هو إعدام الأبناء البكور فقط، أم قتل البنات البكور أيضا؟ وحين أكدت لها أن الحديث يدور حول الذكور فقط هدأت، وحيال الصمت المطبق المتواصل أيقنت أنها قد نامت. لكن سؤالا قاتلا أخيرا انقض عليّ من المقعد الخلفي، على نحو مفاجئ: «هل قتل الرب الأطفال الصغار أيضا في حال كانوا البكور في العائلة»؟.

أذكر أنني ماطلت في إعطاء جوابي. والحقيقة أنني لم أكن أعرف بماذا أجيب. كلا، كلا، قلت. أكدت أن الحديث يجري عن مصريين فقط، لا عن أبناء جلدتنا نحن، وذلك لأنني ـ على الرغم من أنني كنت لا أزال أعرّف نفسي بأنني يهودي ـ لم أكن، يوما، متعصبا عرقيا أعمى ومنغلقا. ولم أحاول، أيضا، تبرير الأمر باعتباره «انتقاما مشروعا»، إذ حتى الشيطان نفسه لم يكن ليبدعَ انتقاما يتحقق بقتل مقصود ومتعمد لأطفال رضّع. ولم أستطع، أيضا، القول إن الحديث يجري عن وصف لعملية موضوعية ينفذها الرب، الذي تبقى علاقتنا حياله حيادية في نهاية المطاف. فما الذي تعرفه عن الموضوعية والحيادية؟ ناهيك عن أنها كانت قد سمعت، قبل ذلك بساعتين، كيف نقدم الشكر للرب بأنشودة عظيمة تمجد ضربة موت الأطفال البكور، ورددت من خلفي بصوت مرتفع كلمات نشيد «يكفينا».

فركت دماغي بحثا عن إجابات متهرّبة أخرى، إذا ما تجدد التحقيق في الصباح، لكن الخوف شلّني. وماذا لو أرادت أن تقرأ حكاية الفصح، ثانية ومن جديد، فنصل إلى استجداء النقمة الموجه إلى الرب بالقول: «صُبّ جام غضبك على الأغيار الذين لم يعرفوك... وأبِدْهم من تحت سمائك»؟

كانت مجموعة النصوص التي تسمى حكاية الفصح، طوال مئات الأعوام، عنصرا مركزيا في الحياة الثقافية اليهودية والصيغة الأولى التي بقيت منها بين أيدينا هي من القرن الثاني عشر الميلادي فقط. ونحن لا نعرف بالضبط متى أضيف إليها الطلب الصريح بشأن إبادة جميع «الشعوب» غير المؤمنة بالرب اليهودي، والتي تجرأت على المس بشعب إسرائيل. نحن نعرف، على نحو مؤكد، أن كهنة مسيحيين من الذين كانوا مصابين برهاب اليهود في العصور الوسطى كانوا يعرفون هذا النص، معرفة عميقة، ودرجوا على استخدامه من حين إلى آخر من أجل إلهاب المشاعر والأجواء ضد الكفار قتلة يسوع، بل وترويج فِريات دموية رهيبة ضدهم. وكما هو معروف، فإن الربط الخطر بين دم الأطفال والمصّة (نوع من الخبز الخاص بعيد الفصح العبري ـ المترجم) أصبح سلاحا رائجا في أيدي محرضين كثيرين.

وأميل إلى الافتراض بأن جدّتي وجدّي نجحوا في إقامة طقوس عيد الفصح في غيتو لودج المغلق قبل تصفيتهم في الشاحنات الخانقة، التي لم تكن تعمل كما يرام، والتي استبدلت بأفران الغاز الأكثر فاعلية. ولست أعرف ما إذا كانوا قد بلغوا في صلواتهم تلك الجملة المروّعة. لكنني واثق من أن العالم، مثلي أنا، يغفر لهم اليوم ذلك. حين يصرخ الضعفاء والملاحَقون مطالبين بالانتقام، يمكن فهم ذلك، حتى وإن كان لا يمكن تبرير أي عمل يقومون به وأي حماقة تنطق بها ألسنتهم. ولكن، أي موقف يفترض بنا اتخاذه حيال المثقفين «اليهود العلمانيين» الذين يجلسون حول «الموائد المنضودة» (مُصنَّف تلمودي فقهي يحتوي على سائر القواعد الدينية التقليدية للسلوك ـ المترجم) في باريس، لندن أو نيويورك، ويقرأون بحماسة زائدة، أو بانتشاء، كتاب الفصح من دون أن يحذفوا منه كلمات الطعن والتحريض ضد الأغيار؟. وثمة سؤال أكثر حدة: كيف يمكن تقبل حقيقة أن تلك الجملة البائسة تتناقلها، أيضا، ألسن الطيارين الإسرائيليين الذين يحلقون في سماء الشرق الأوسط، أو ألسن المستوطنين المسلحين الذين يتجولون حول وفي داخل قرى عربية لا تتمتع بأي حماية في الضفة الغربية المحتلة؟

يلوّح كثيرون من بين أولئك الذين يعرّفون أنفسهم، مجددا، بأنهم يهود علمانيون اليوم بأفضلية الأخلاقيات اليهودية وتميزها. ولئن كان اليهود قد وُصِموا، طوال مئات الأعوام، بأن أخلاقهم عليلة وبأنهم مرابون فاسقون وتجار غشاشون مخادعون (وليام شكسبير أو

تشارلز ديكنز لم يكونا استثنائيين في وصف اليهودي في مؤلفاتهما)، فإن رجال فكر غير قليلين يحاولون، في المقابل، وخاصة في الفترة الأخيرة، إسباغ قيمة مضافة على اليهودية تتمثل في الأخلاقيات النبيلة، حب الآخر، التضامن الراسخ مع المقهور والمظلوم، وما شابه ذلك.

والحقيقة هي أنه ليس التلمود هو الذي وجّه اليهود نحو الاشتغال في أعمال «حقيرة»، مثل دائنين بالفائدة، صيارفة ذهب وباعة متجولين. لكن العالم المسيحي هو الذي أرغمهم، في نهاية المطاف، على العمل في مجالات كسب الرزق هذه، من خلال حرمانهم من حقهم في أن يكونوا مالكي أراضٍ وأن يعملوا في فلاحة الأرض. وبعد أن حوّلهم إلى محتالين وخسيسين، أضاف خطيئة على الجريمة بأن ألصق لهم خصالا جوهرية لا تنبع من مجالات عملهم، بل من الطمع الخياني النابع من عقيدتهم. ولم يبق لأحفاد يهوذا الاسخريوطي، الذين رفضوا معروف يسوع السخي، سوى العيش مثل الطفيليات، من مال ملوث. أليس هذا ما أمرهم به التلمود؟ أولم يكن هذا هو ما أعدّهم له التاريخ، منذ الأزل؟

لم يكن شارل فورييه (Fourier)، أو بيير جوزيف برودون (Proudhon)، الوحيدين، بل حتى كارل ماركس الشاب أيضا تبنى، في وقته، الحماقة التاريخية التي ينطوي عليها تعريف اليهودية بأنها دين جشع. وحتى لو كان بعض اليهود وأحفادهم قد برزوا في عملهم كمصرفيين أو أصحاب مصالح تجارية ناجحة ـ وليس هذا ما كان، واقعا ـ فمن الأجدى البحث عن أسباب ذلك والعثور عليها في تفسيرات اجتماعية ـ تاريخية، لا أيديولوجية، كما أراد أن يفعل، مثلا، فيرنر زومبارت (Sombart)، رغم إخفاقه، هو أيضا، في غير قليل من فرضياته.

بدأ في النصف الثاني من القرن العشرين، بعد صدمة «اليهودوسايد»، مفهوم معاداة اليهودية يمرّ بتحولات راديكالية. فقد أخذت أوساط مختلفة من المثقفين تشدّد، بوجه خاص، على الحقيقة التاريخية التي لا سبيل إلى إنكارها: كثيرون من أحفاد اليهود البرجوازيين لم يواصلوا مشاريع آبائهم وأجدادهم في تكديس الأموال، بل أصبحوا مفكرين وقادة للمضطهَدين والمستغَلين، تحديدا. وذلك بدءا بكارل ماركس نفسه، الذي كرّس حياته كلها من أجل الطبقة العاملة المصنَّعة في القرن التاسع عشر، مرورا بليون تروتسكي وروزا

لوكسمبورغ، في مطلع القرن العشرين، وليون بلوم في الثلاثينيات، وانتهاء بهوارد زين (Zinn) ومئات الشبان من عائلات يهودية تجندوا في النضال من أجل المساواة في الحقوق للسود في الولايات المتحدة أو تعاطفوا مع الفيتناميين وأصبحوا مقاتلين ومتمردين سعوا، بثبات ومثابرة، من أجل تحقيق العدالة والمساواة الاجتماعيتين.

وعليه، فقد خضعت صورة اليهودي لعملية تحول وترقية في أوروبا المحبّة لليهود و«اليهودية ـ المسيحية» في وقتنا الراهن. انطلق البحث منذ تلك الفترة، عن سببية جوهرية وملازمة لوقوف أحفاد اليهود المكثف في صف التنور والتقدم. ومال كثيرون سريعا جدا، إلى الاستنتاج بأن تلك السببية تكمن في الأخلاق اليهودية القديمة. وجرى تفسير دافعية المتمردين ضد الظلم استنادا إلى التربية اليهودية التي تلقوها من أهاليهم، والتي تأسست، ظاهريا، على تقاليد إنسانية عريقة جدا. وطبقا لهذا التوجه، فإن «الشعب» الذي أهدى العالم الوصايا العشر لا يزال يواصل حملته المتميزة بين الشعوب الأخرى سعيا إلى تكييفها مع المبادئ النبيلة التي وضعها الأنبياء التناخيون. ولهذا، فقد ارتأوا إبراز فلسفة الـ «حوار» الديني التي وضعها مارتن بوبر، والتضامن والعناية الإلهية في فكر أبراهام يهوشواع هيشل (Heschel)، وعلى هذه الخلفية حصرا يحاولون اليوم سبر غور نظرية «الآخر» في أعمال الفيلسوف عمانوئيل ليفيناس. لكن، وكما أن صورة اليهودي السلبية في الماضي كانت كاذبة ومشوهة من أساسها، هكذا هي أيضا صورة الأخلاق اليهودية الإيجابية والنبيلة المعاصرة ـ أسطورة مفبركة تفتقر إلى أي إسناد تاريخي، وليس في إمكان فلسفة بوبر، هيشل أو ليفيناس دحض هذه الحقيقة. فالتقاليد اليهودية الممتدة أعواماً طويلة جدا تأسست، في جلها وجوهرها، على وجدان عام داخلي تماما. وحتى لو كانت ثمة أخلاق غير عالمية قد سادت، فعليا، بين مجموعات دينية أخرى، إلا إنها كانت لدى اليهود، على الدوام، أكثر تأكيدا وانكشافا، على خلفية الملاحقات والعزلة القاسية التي عانت منها أقلية ملاحَقَة. وقد واصلت اليهودية وضع وتكريس أخلاق فردانية إثنو ـ دينية خالصة، طوال مئات عديدة من الأعوام.

يعمد بعض العلمانيين، بالذات، في السعي إلى تبيان الأسس الكونية في الأخلاق اليهودية، إلى اقتباس الآية التوراتية الجميلة «وَإِذَا نَزَلَ عِنْدَكَ غَرِيبٌ فِي أَرْضِكُمْ فَلاَ تَظْلِمُوهُ. كَالْوَطَنِيِّ

مِنْكُمْ يَكُونُ لَكُمُ الْغَرِيبُ النَّازِلُ عِنْدَكُمْ، وَتُحِبُّهُ كَنَفْسِكَ، لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ. أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ» (سفر اللاويين، الإصحاح ١٩: ٣٣- ٣٤). وقد يكون المقصود بتعبير «غريب» ساكنا جديدا، لكن من المنطقي الافتراض بأن القصد يقتصر على المهاجر الخانع الذي شرع في تبني الإيمان بيهوَه وتأدية جزء من فروضه.

وقد حظرت التوراة، صراحة، على عبدة الأصنام العيش سوية مع أتباع يهوَه في بلاد الرب الموعودة. ولذا، فليس صدفة أن تعبير «غريب» في التوراة لا يطبّق، إطلاقا، على كنعانيين وفلستيين غير مختونين.

وترد في الإصحاح التوراتي ذاته، أيضا الجملة المعروفة: «تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ» (سفر اللاويين، الإصحاح ١٩: ١٨). وقد استعار العهد الجديد هذا الأمر الرائع الأخير ووضعه في فم يسوع (متى ١٩: ١٩؛ مرقس ١٢: ٣١؛ رسالة إلى أهل روما ١٣: ٩). لكن قلائل هم المستعدون للاعتراف والتأكيد بأن الآية الكاملة في توراة يهوه المقدسة تقول: «لا تضرب ولا تظلم أبناء شعبك، بل تحبّ قريبك كنفسك، أنا الرب إلهكم». ولذلك، فسّر «رامبام» (موسى بن ميمون)، كبير القضاة اليهود في كل الأزمان، هذه الجملة في كتابه «مشناه توراه» على النحو التالي: «فرضٌ على كل شخص أن يحب أي شخص من إسرائيل كنفسه...». وفي نصوص يهوه، كما في اليهودية اللاحقة، لم يكن ثمة شك في أن المبدأ معدّ للتطبيق على مَن يتبنون العقيدة الإيمانية ذاتها فقط، وليس على جميع بني البشر.

يسمع المشاهدون المنفعلون لـ «قائمة شندلر»، فيلم سبيلبيرغ الحائز على عدة جوائز أوسكار، في نهايته الجملة السخية والنبيلة الموجهة إلى منقذ اليهود الألماني: «كل من ينقذ نَفسا واحدة، كأنما أنقذ عالما بأكمله». قلائل منهم يعرفون أن التلمود البابلي، الذي كان على الدوام النص المقرر في الشريعة اليهودية، تضمن الجملة التالية: «كل من ينقذ نَفسا من إسرائيل... كأنما أنقذ عالما بأسره» (درس السنهدرين، الورقة ٣٦، أ). أما التجميل البلاغي في نص سبيلبيرغ فقد نبع من مقاصد حسنة لدى مخرج هوليوودي لطيف، وقد لاقت استحسانا لدى كثيرين جدا كما هو معروف، لكن إنسانوية الفيلم الهوليوودي لا تمت بصلة حقيقية إلى التراث اليهودي.

وكما هو معروف، قضى اليهود مئات الأعوام في دراسة التلمود، وأقل منها بكثير في دراسة «التناخ». في المدارس الدينية كانوا يعرفون التوراة جيدا، من خلال «الأجزاء الأسبوعية» («الجزء الأسبوعي»، هو كل واحد من ٥٤ جزءا قُسِّمت إليها فصول التوراة، يتم قراءة واحد منها أسبوعيا، على نحو تتابعي ـ المترجم)، لكن لم يكن متبعاً إجراء نقاشات ومساجلات حول معانيها ورسائل الأنبياء الكبار. وقد استوعب التراث المسيحي الأبعاد الكونية الواردة في النبوءة التوراتية أكثر بكثير، نسبيا، مما حصل في التراث اليهودي. صحيح أن موقف اللامساواة تجاه الآخر غير اليهودي ليس جازما وقطعيا كما نصه في المقولة التلمودية، «أنت تسمّون بشرا ولا تسمّى أمم العالم بشراً» (التلمود البابلي، الفصل الأول من المجلد الثاني، الورقة ٦١، ٧١)، لكن ليس من قبيل الصدف، أيضا، أن يكون أبراهام إسحق هكوهن كوك، المحرك المركزي في سيرورة تأميم الدين اليهودي خلال القرن العشرين والحاخام الرئيس لجالية المستوطنين اليهود في فلسطين قبل قيام الدولة، استطاع أن يكتب في مؤلفه «أضواء القداسة»: «إن الفارق ما بين الروح الإسرائيلية، ذاتيتها، رغباتها الداخلية، طموحاتها، مزاياها وموقفها، وبين روح الغير جميعا، بكل درجاتهم، هو أكبر وأعمق من الفارق بين روح الإنسان وروح الحيوان، ذلك أن بين الأخيرين لم يظهر سوى فارق كمّي، بينما بين الأولّين ثمة فارق ذاتي جوهري». وينبغي أن نذكر أن مؤلفات الحاخام كوك تشكل، حتى يومنا هذا، مرشداً روحانيا أساسيا بين أوساط المستوطنين المتدينين ـ الوطنيين في أنحاء المناطق المحتلة.

ويمكن لنا إزاء هذا كله، أن نزيد: إن المبادئ الأخلاقية في الوصايا العشر المكتوبة في التوراة غدت مركزية بين أوساط جميع المؤمنين في الغرب بإله واحد. وهي تظهر للمرة الأولى، كما هو معروف، في المناسبة الميثولوجية على جبل سيناء، ثم اكتست هالة القدسية لدى الديانات التوحيدية الغربية الثلاث ـ اليهودية، المسيحية والإسلام. ويمكن اعتبارها، دونما صعوبة، قاعدة لوحدانية الرب التي أصبحت معتقدا إيمانيا يلف العالم بأسره. أليست هي أيضا القاعدة الأخلاقية العالمية لليهودية؟

ويتبدى في ذلك المقام الميثولوجي المثير، نفسه، الرب لموسى ويتعهد أمام النبي العبري بأنه سيهلك جميع ساكني أرض كنعان، كي يخلي لبني إسرائيل الأرض الموعودة. وبعد ثلاثة

فصول قصيرة في التوراة، بعد تنزيل الوصايا التي تشمل، أيضا ـ وكما هو معروف ـ وصية / أمر «لا تقتُل»، يرد التعهد بالقتل الجماعي: «فَإِنَّ مَلاَكِي يَسِيرُ أَمَامَكَ وَيَجِيءُ بِكَ إِلَى الأَمُورِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، فَأُبِيدُهُمْ» (سفر الخروج، الإصحاح ٢٣ : ٢٣). وقد عرف اليهود، على مر التاريخ، هذا الوعد وجربوا تطبيقه الوحشي في لاحق الرواية واضطروا، بوصفهم مؤمنين مثابرين، إلى إقرار القانون الإلهي وتقديسه، إذ لا يجوز ولا يمكن الاستئناف على منطقه.

وسوية مع الوصايا العشر، انتقل، أيضا، إرث الجينوسايد اليهويستي هذا إلى الديانتين التوحيديتين الأخريين اللتين أجازتا، بل شجعتا، تصفية عبدة الأوثان العنيدين الذين يرفضون الاعتراف بتفوّق رب واحد قادر على كل شيء. وبحلول عصر التنوير، في القرن الثامن عشر فقط، بدأت تظهر، للمرة الأولى، انتقادات لهذه الأوامر المرعبة ومحاولات للتنصل منها. كان ينبغي انتظار قدوم جان ميلييه (Meslier)، وتوماس شوب (Chubb)، وفولتير وفلاسفة آخرين من أجل التأشير على الأخلاق الدينية المعادية للكونية، والتي تسم التوراة وغذّت، بصورة غير مباشرة، جميع أولئك، يهودا ومسيحيين ومسلمين، الذين قدّسوا النص كأنما هو كلام الربّ ذاته.

إن أحفاد اليهود الذين مروا بعملية العلمنة اضطروا، بقوة وجهد فائقين، إلى الانفصال عن هذا الإرث الأخلاقي الأنانيّ والتحرر منه، بغية تبني أخلاقيات إنسانية، عالمية شاملة، بدلا منه. وحتى وإن أدرك بعضهم، جيدا، أنه لن يكون من المتاح تحقيق الحلم، أبدا، إلا أنهم كانوا مضطرين إلى الإيمان بالمبادئ والقيم الحديثة، مثل المساواة، الحرية والأخوة، التي يفترض أن تكون من نصيب جميع بني البشر، والتشبث بها. ومن غير انقلاب عصر التنوير، من دون الفهم الكوني لحقوق الإنسان، وحقوق المواطن والحقوق الاجتماعية لاحقا، لم يكن ليظهر مثقفون وقادة مثل كارل ماركس، ليون تروتسكي، روزا لوكسمبورغ، كورت آيزنر (Eisner)، كارلو روسيلي (Rosselli)، ليون بلوم، أوتو باوار (Bauer)، بيير منديس فرانس (Mendès France)، أبراهام تسرفاتي، دانييل كوهين ـ بنديت (Cohn-Bendit)، نوعام تشومسكي، دانييل بن سعيد، نوعمي كلاين وكثيرين جدا آخرين كانت خلفيتهم،

سواء البعيدة أو القريبة، يهودية.

وبمدى البُعد الفاصل بين هؤلاء، وآخرين مثلهم، والإرث الديني اليهودي، كذلك أيضا كان قربهم من رؤية كونية إنسانية وعزيمة قوية لتغيير ظروف حياة بني البشر جميعا، أيا كانوا، وليس فقط أبناء جلدتهم الدينيين، الاجتماعيين أو القوميين. وهكذا، لم يتبق، إذن، سوى توضيح المسألة والتساؤل ما إذا كانت حقيقة أن كثيرين جدا، نسبيا، ممن قادوا ونشّطوا عوالم الثورة، الاحتجاج، الإصلاح والأمل كانوا ذوي جذور ضاربة في التاريخ اليهودي، مجرد صدفة ليس إلا؟

إن اضطهاد أقلية دينية تعيش في كنف حضارات دينية مهيمنة هيّأ الأرضية لبعض أحفاد المضطهَدين الذين مروا بتجربة العلمنة للانضمام، بحلول التنوير، إلى حملات التضامن مع جميع المعذبين المستَضعَفين ومساندتهم. وهذا، فضلا عن أن رهاب اليهود الحديث، الذي أصرّ على النظر إليهم باعتبارهم يهودا، رغم عدم رغبتهم البارزة في ذلك، قد زاد في تعزيز وتدعيم الأخلاق الكونية بين كثيرين منهم: لكي تتحرَّر، يجب أن تُحرِّر الجميع! لكي تحظى بانتخابات حقيقية، ينبغي أن يكون جميع بني البشر أحرارا.

من الجائز ـ وإن يكن من الصعب إثبات ذلك ـ أن ثمة بقايا من تقاليد انتظار المسيح، بكونها حجر أساس في المعتقدات الدينية الطويلة الأعوام، قد ترددت كصدى في دواخل بعض منهم. فقد كان التوق إلى خلاص ديني مغروسا عميقا في الشعورية اليهودية، على خلفية الاغتراب والملاحقات، وتُرجِمَت فعليا بعلمنة الإيمان القوي بخلاص ثوري شامل، بظهور نظام عالمي أكثر عدلا يشكل نهاية التاريخ، نهاية الألم، نهاية العذاب ونهاية القمع والاضطهاد.

ظل غير قليل من أحفاد اليهود طوال بضعة أجيال، منذ بدء التحرر وطالما كان رهاب اليهود منتشرا، يحتضنون كتائب المتنفضين على النظام القائم. فقد كانوا بين المتمردين الأبرز في العصر الحديث. ليس جميعهم، بالتأكيد. وربما كانت أغلبية اليهود وأحفادهم المعَلمنين، من الناحية العددية، في صف أنصار منظومات القوة والسيطرة السائدة. لكن حضور المثقفين المتمردين الذين جاء آباؤهم من عالم الثقافة اليهودية كان بارزا جدا، بل أكثر من اللزوم في

نظر المحافظين وممثلي اليمين المصابين برهاب اليهود.

بدأت ظاهرة تحدّي النظام القائم هذه تتغير، بسرعة، مع تقهقر اللاسامية السياسية، وسوية مع تراجع قيمة اليوتوبيا في عالم الفكر الغربي. وقد أدى تبدد هيبة الكونية الثورية، في أعقاب الكشف عن جرائم الأنظمة الشيوعية - ليس وحده فقط، بل ضمن أشياء أخرى - إلى نتيجة مؤسفة أيضا تمثلت في ذوبان وتلاشي الإيمان بالتضامن الإنساني الشامل. كما تضاءل عدد المثقفين أصحاب الضمير الإنساني الكوني من أبناء المهاجرين اليهود الذين اصطفوا، دائما، إلى جانب الملاحَقين، وأغرقت شريحة منهم في التوجهات المحافِظة، أكثر فأكثر، وبصورة علنية، بل بدأ بعضهم يغازل تقاليد يهودية دينية، بينما دُفع بآخرين، أكثر عددا بكثير، إلى الدفاع الحماسي عن أي إجراء أو عمل يصدر عن السياسة الإسرائيلية في الشرق الأوسط.

يتعين على من يحاول الربط والتوليف بين أخلاق يهودية وعدالة اجتماعية، بين تراث يهودي ومساواة الحقوق الإنسانية، أن يسأل نفسه: لماذا لم تنطلق، من عالم الدين اليهودي نفسه، أي تيارات تعارض المساس المتكرر بحقوق الإنسان وتكافح ضده؟ وكذلك هي الحال اليوم أيضا، إذ ليست ثمة أي احتجاجات تصدر عن المؤسسات اليهودية ضد مظاهر الظلم والعسف القاسية التي تحدث يوميا في ظل الاحتلال الإسرائيلي. صحيح أن ثمة إشارات تصدر هنا وهناك عن حاخامين إصلاحيين، شبان واستثنائيين، تدل على الرحمة والعطف حيال ضائقة الآخر، معاناته وعذاباته، لكنّ أيا من الجاليات اليهودية المنظمة والمتينة لم تتجند دفاعا عن ملاحَقين غير يهود أو لحمايتهم. ولم يخرج طلاب المدارس الدينية الممتلئون طاقة ونشاطاً، قط، للتظاهر ضد اضطهاد الآخرين. فمثل هذه الأعمال تتعارض، كليا، مع المزاج الديني - التقليدي العام السائد.

وينبغي مع ذلك، الحرص وعدم الخلط ما بين اليهودية والصهيونية. فحتى القرن العشرين، بل وحتى مجيء هتلر، كانت اليهودية مثابرة في معارضتها الحازمة للقومية اليهودية. وقد رفضت اليهودية المنظمة والممأسسة، سوية مع جماهير أتباعها وأنصارها، فكرة الاستيطان في البلاد المقدسة، كما رفضت - وبحدة أكبر أيضا - إقامة دولة تدعى يهودية. ويجدر أن نضيف

أن هذه المعارضة الثابتة لم تأت بدافع التضامن والتعاطف الإنسانيين مع السكان المحليين الذين تم اقتلاعهم من أرضهم. لم تكن الأحكام والمعايير الأخلاقية الكونية المرشد الذي وجّه كبار الحاخامين في معارضتهم الثابتة والحازمة للصهيونية. فقد أدرك هؤلاء، جيدا، أن هذه الأخيرة، في نهاية المطاف، ليست سوى ذوبان جماعي في الحداثة، في حين أن السجود لأرض قومية في إطار الإيمان العلماني الجديد، سيحلّ محل عبادة الرب، قولاً وممارسة.

***

إن إنشاء دولة إسرائيل، وانتصاراتها العسكرية وتوسعاتها الإقليمية جرفت، في نهاية المطاف، الأغلبية الساحقة من المعسكر الديني، فخضع لعملية تأميم راديكالية حثيثة. وأصبحت فئات واسعة جدا، سواء من المتدينين الوطنيين أو من الحريديم الوطنيين، تنتمي اليوم إلى التيارات الأكثر استعراقاً في المجتمع الإسرائيلي. وفي واقع الأمر، لا التوراة ولا التلمود هما اللذان قاداها، بالضرورة، إلى هذه الاتجاهات، لكن الرسائل المركزية التي بثتها التوراة وشروحاتها لم تمنع الانحراف نحو العنصرية الفظة، والشهوة غير المكبوحة للأراضي وللاستيلاء عليها، وعدم الاكتراث الصارخ بسكان البلد الفلسطينيين الأصلانيين.

بكلمات أخرى، قد لا تكون الجوانب الأنانية المتمركزة حول الذات التي تسم الأخلاق اليهودية التقليدية مسؤولة بصورة مباشرة عن التدهور المعادي لليبرالية والمعادي للديمقراطية الحاصل في إسرائيل هذه الأيام، لكن الأمر المؤكد أنها أتاحته، ولا تزال تتيحه. وحين يمتزج تراث الوجدان الجماعي العام مع القوة ـ الدينية، القومية أو الحزبية ـ فإنه ينتج، دائما، مظالم رهيبة إزاء كل مَن لا يُعتبَر جزءاً من الجماعة.

من هو يهودي في إسرائيل؟

العام ٢٠١١. كنت في مطار «بن غوريون» في انتظار أن أستقل رحلة جوية متجهة إلى لندن. استمر التفتيش الأمني طويلاً ونفد صبر جمهور المسافرين. أصابني الملل وأنا واقف في الطابور أنتظر دوري وراء الآخرين، إلى أن لفتت نظري على حين غرّة امرأة جالسة على مقعد بالقرب من الحواجز الأمنية، وكان يغطّي رأسها، لا وجهها، منديل تقليدي أسود (ترتكب وسائل الإعلام الغربية خطأً مقصوداً بتسميته «حجاباً»). وكان يحيط بها عنصران من رجال الأمن الإسرائيليين بعد أن أخرجاها من الطابور قبل ذلك بوقت قصير. لم يكن من الصعب عليّ أن أخمّن أنّها إسرائيلية «غير يهودية». بدا اليهود الإسرائيليون حولي كما لو أنهم لم يروها، كما لو أنها شفافة تماماً. إن هذا المشهد عاديّ لدى الصعود إلى الطائرات في إسرائيل وما عاد يثير أي اهتمام. فالفلسطينيّون ـ الإسرائيليون يُفصلون دائماً عن سائر الركّاب ويخضعون لاستجواب وتفتيش خاصّين. والتبرير الذي يُعطى لذلك هو الخشية من القيام بهجوم إرهابي، وقد بات مقبولاً وطبيعياً. ولم تتسبب حقيقة عدم انجرار عرب إسرائيل إلى الهجمات المسلحة وتدنّي الأعمال الإرهابية في الأعوام الأخيرة من الحالة العصبية السائدة في المطار، وبقي الفلسطينيون الأصلانيون مشبوهين ويخضعون للمراقبة الأزلية في دولة المهاجرين اليهود.

تضايقتُ من نفسي وهززت كتفيّ عجزاً حيالها. رمقتني بنظرة طويلة ساكنة ومستفهمة. لم تتشابه نظرتها إليّ قطّ مع نظرة أبي، لكنّها كانت أيضاً تتسم بالخوف والحزن والإساءة. وفجأة ابتسمَت، وقرأتُ في ملامحها إشارة إلى عجز مماثل. عبرتُ الحاجز الأمني بعد دقائق قليلة، بمنتهى السهولة. خجلتُ إلى حدٍّ ما من أن أدير رأسي باتّجاه المرأة. وهأنذا أعوّض

عن ذلك في هذا الكتاب. هذا اللقاء الخاطف أكّد لي مرة أخرى ما يلي: كي يكون المرء في إسرائيل «يهوديّاً»، عليه قبل أي شيء ألّا يكون عربيّاً.

اضطرت الصهيونية العلمانية منذ تأسيس دولة إسرائيل، إلى مواجهة سؤال أساس لم تجب عنه حتى الآن ولم يجب عنه كذلك مؤيّدوها في الخارج، وهو: «من هو يهوديّ؟».

بطبيعة الحال، لم تكن لدى اليهودية التلمودية أي تخبطات إزاء هذا النوع من الأسئلة. فعلى خلاف التوراة التي تصف اليهودي بأنّه المؤمن بالله، لطالما كان اليهوديّ هو الذي ولد من أمّ يهودية أو الذي اعتنق الديانة اليهودية وفقاً للقانون الديني وأتمّ التعاليم الأساسية. في الزمان الذي لم يكن فيه الإلحاد خياراً، كان الذي يتخلّى عن الديانة اليهودية لاعتناق ديانة أخرى (كحال كثيرين آنذاك)، يكفّ عن كونه يهوديّاً في نظر أتباع الديانة. ومع ظهور العلمانية، أصبح اليهودي الذي يكفّ عن تأدية الفرائض الدينية من دون أن يعتنق ديانة أخرى، يثير أسى المقرّبين منه، ولكنّه يبقى يهوديّاً بالنسبة إليهم، ذلك بأنّ الأمل يبقى موجوداً بأن يعود مجدّداً إلى ربوع الإيمان، بما أنّه لم يعتنق لا المسيحيّة ولا الإسلام.

حاولت الصهيونية في الأعوام الأولى من تأسيس دولة إسرائيل، ومع موجات الهجرة التي جلبت أزواجاً «مختلطين»، تجاهل المشكلة، بيد أنّها سرعان ما فهمت أنّ تعريف اليهوديّ لا يمكن أن يرتكز على مبدأ التطوّع. بموجب «قانون العودة»، منحت الدولة الجديدة تلقائيّاً إمكان الهجرة والحصول على الجنسية إلى جميع الذين يُعرَّف عنهم على أنّهم يهود. وكان من المحتمل أن يزعزع فتحُ أبواب الهجرة على هذا الشكل شرعيةَ الاستيطان الإثنية ـ الدينية التي ترتكز عليها الصهيونية العلمانية. بالإضافة إلى ذلك، عرّفت الصهيونية اليهود على أنّهم «شعب» من أصل واحد، الأمر الذي جعلها تخشى، على غرار اليهودية قبلها، «ذوبان» اليهود في الأغيار المجاورين.

ولذا، مُنع الزواج المدني في الدولة العلمانية فور إقامتها، ولم يُسمح إلّا بالزواج الديني. ولا يحقّ ليهودي الزواج إلّا من يهودية، والمسلمة لا يحق لها الزواج إلا من مسلم. وينطبق هذا القانون التمييزي جدّاً على المسيحيين والدروز أيضاً. ولا يجوز لزوجين يهوديين لم ينجبا أطفالاً أن يتبنّيا طفلاً «غير يهودي» (مسلماً أم مسيحيّاً) إلّا بعد جعله يهوديّاً بحسب القانون

الحاخامي اليهودي. أمّا فرضيّة تبنّي زوجين مسلمين طفلاً يهوديّ الأصل فغير واردة على الإطلاق.

وعلى خلاف التفكير السائد، لا يُعزى استمرار هذا التشريع الديني المضاد للّيبرالية إلى القوة الانتخابية التي يتمتّع بها المتديّنون، بل إلى الشكوك التي تحوم حول الهوية الوطنية العلمانية وإرادة الحفاظ على نزعة الاستعراق اليهودية. لم تظهر إسرائيل يوماً على أنّها ثيوقراطية حاخامية، إذ ما زالت منذ تأسيسها عبارة عن إثنوقراطية صهيونية. ولطالما واجهت هذه الإثنوقراطية مسألة في غاية الأهمية: فهي تعرّف نفسها على أنّها «دولة يهودية»، أو حتى «دولة الشعب اليهودي» من أنحاء العالم كافة، بيد أنّها عاجزة عن تحديد من هو يهودي.

باءت المحاولات التي أُجريت في خمسينيات القرن الماضي لتحديد العرق اليهودي من خلال البصمة، أو الاختبارات الحديثة العهد الرامية إلى تمييز حمض نووي يهودي، كلّها بالفشل. وعبثاً حاول بعض العلماء الصهيونيين في إسرائيل وخارجها الإعلان عن «نقاوة وراثية» حافظ عليها اليهود على مرّ الأجيال، بيد أنّهم لم ينجحوا حتى الآن في تمييز اليهودي استناداً إلى نموذج من الحمض النووي.

لم يكن ممكناً الاحتفاظ بالمعايير الثقافية أو اللسانية: فلم تتشارك ذراريهم قطّ في لغة واحدة أو ثقافة واحدة. ولم يبقَ متاحاً للمشرّعين العلمانيين سوى المعايير الدينية: الذي وُلد من أمّ يهودية أو اعتنق اليهودية بموجب القانون والفريضة الدينية تعترف به دولة إسرائيل على أنّه يهوديّ له حقّ حصريّ وأبديّ في امتلاك الدولة والأرض التي تحكمها هذه الدولة. ومن هنا الحاجة المتزايدة إلى الحفاظ على اللباس الديني اليهودي في سياسة الهويات الرسمية لدولة إسرائيل.

فضلا عن ذلك، فإنه منذ أواخر السبعينيات، وأكثر فأكثر في الثمانينيات، ثمة تشديد على أنّ إسرائيل دولة يهودية لا إسرائيلية. وبينما تشمل الصفة الأولى «يهود العالم» بأسره، فإن الصفة الثانية لا تشمل «سوى» مجموع المواطنين الذين يعيشون في إسرائيل، من مسلمين ومسيحيين ودروز ويهود من دون التمييز في ما بينهم. وعلى الرغم من أنّ الأسرَلة الثقافية تزداد ازدهاراً ونضوجاً في الحياة اليومية ويشهد الفلسطينيون ـ الإسرائيليون تثاقفاً مع

اليهود، أصبحت الدولة يهوديّة أكثر فأكثر، بدلاً من أن تعترف بهويّتها وتجعل منها بوتقة وعي جمهوراني وديمقراطي.

أحدث الواقع الثقافي الإسرائيلي والهوية اليهودية الكبرى فصاماً غريباً في سياسة الهويات في إسرائيل: فمن جهة، تعلن إسرائيل أكثر فأكثر أنها دولة يهودية وتلتزم بتقديم الدعم المتزايد لمؤسسات ثقافية ومنشآت دينية ووطنية تقليدية، على حساب تعليم الإنسانيات العامّة والمعارف العلمية. ومن جهة أخرى، لا تزال النخب الفكرية القديمة وشريحة من الطبقة الوسطى العلمانية تشكو القيود الدينية. وهي تودّ التحليق خارج السرب الديني، شرط ألّا تنفصل عنه كلّيّاً: فهي تودّ أن تبقى يهودية ببساطة خارج إطار الديانة اليهودية، من دون أن تدرك أنّ هذا الأمر مستحيل.

وثمة أسبابٌ متعددة تعلّل التشديد على التهويد في هوية الدولة. يمكن الافتراض أن هذا التوجّه نجم بداية عن واقع أنّ دولة إسرائيل سيطرت على شريحة واسعة من الشعب الفلسطيني. ويشكّل الفلسطينيون المقيمون في مناطق الأبارتهايد في المناطق المحتلّة وعرب إسرائيل، كتلةً ديمغرافية يُنظر إليها على أنّها تشكّل خطراً وتهديداً على الطابع اليهودي الوهمي لدولة إسرائيل.

ويجوز أيضاً أن تكون الحاجة المتزايدة إلى الصفة اليهودية من أجل تعريف الدولة انبثقت من انتصار اليمين الصهيوني الذي استفاد أساساً وليس حصراً، من دعم الإسرائيليين من أصل يهودي-عربي. وكما ذكرنا آنفاً، حافظ هؤلاء على هويّتهم اليهودية بشكل أشدّ وضوحاً بكثير من مجموعات المهاجرين الآخرين. وقد نجحوا منذ العام ١٩٧٧ في ترجمتها سياسيّاً وبشكل فاعل على الصعيد الانتخابي، الأمر الذي حدّد وجهة إسرائيل في الأعوام اللاحقة.

إنّ استيراد «الرّوس» إلى إسرائيل بدءاً من أواخر الثمانينيات، بما يحملون من صفات هوية مختلفة جدّاً، فاقم التوجّه العامّ في البلد أيضاً: فغياب التقاليد اليهودية عن هؤلاء المهاجرين الجدد وعدم معرفتهم بالثقافة الإسرائيلية دفعا المؤسسات الإسرائيلية إلى التشديد على اليهودية المشبعة لا بالإرث الثقافي، بل بجوهر اليهود، أي بحمضهم النووي. وتبيّن أنّ حملة الهويّة هذه معقّدة، لأنّ شريحةً لا يُستهان بها من الشعب لم تكن يهوديّة. وهكذا، أعاد

عدد من المهاجرين الروس اكتشاف «يهوديّته» عبر إبداء عنصرية شديدة وفظّة حيال العرب.

ويمكن طرح افتراض إضافي: ظهرت في إسرائيل مؤشّرات تنبئ بانحدار القومية التقليدية في العالم الغربي في مقابل تصاعد الطائفية أو القبلية العابرة للقوميات. فأيّ قيمة لهوية ثقافية إسرائيلية صغرى في عصر العولمة؟ ألا يُفضّل في ظل ظروف كهذه تطوير هويّة «إثنية» تتخطى القومية، تمنح من جهة يهود العالم الشعور بأنّ إسرائيل ملكٌ لهم، ومن جهة أخرى تصون شعور اليهود الإسرائيليين بأنّهم جزءٌ من شعب يهودي عظيم يتسلّم بعضه سلطات بارزة في سائر عواصم الغرب؟ ألا يُفضَّل الانتماء إلى «شعب عالميّ» تحدّر منه كثيرٌ من الحائزين على «جائزة نوبل»، وكثيرٌ من العلماء، وكثيرٌ من المخرجين السينمائيين؟ هكذا فقدت الهوية المحلية الإسرائيلية أو العبرية هيبتها السابقة، وتركت الحلبة لهوية يهودية تلقائية ومتضخّمة. وبذا، ارتَدَت اليهوديةُ التقليدية الدينية حلّةً معاصرة لدى كثيرين من اليهود الجدد.

لا بُد من أجل فك رموز قوانين المواطنة والتربية على الهوية في دولة إسرائيل والتي جرى تعزيزها وتقييدها منذ الثمانينيات، من طريقة المقارنة: إذا ما قرّرت الولايات المتحدة الأميركية غداً أنّها ليست دولة جميع المواطنين الأميركيين، بل دولة كلّ من يُعرَّف عنهم حول العالم على أنّهم أنغلو ـ ساكسونيّين بروتستانتيّين، فسيكون وجه الشبه صاعقاً بينها وبين إسرائيل اليهودية. وحتماً، سيبقى من حقّ الأميركيين الأفارقة والأميركيين اللاتينيين والأميركيين اليهود المشاركة في انتخابات الكونغرس ومجلس الشيوخ، شرط أن يتذكّر المنتخَبون أنّ الدولة الأميركية أنغلو ـ ساكسونية إلى الأبد.

سنذهب بالمقارنة أبعد من ذلك من أجل فهم الإشكالية على نحو أفضل: لنسلّم جدلاً أنّ فرنسا قرّرت تعديل الدستور، وقضت بتعريف البلاد على أنّها دولة «غاليّة - كاثوليكية»، وأنّ نسبة ثمانين في المئة من أرضها لا يُمكن أن تُباع إلا لمواطنين غاليّين ـ كاثوليكيين، موضّحةً أنّ مواطنيها البروتستانتيين أو المسلمين أو اليهود يتمتّعون بحقّ الاقتراع وحقّ الترشّح للانتخابات. ولنفترض أنّ التيّار القبليّ والمعادي للديمقراطية امتدّ إلى سائر القارة الأوروبية: ها هي ألمانيا تواجه صعوبات عدّة ناجمة عن ندوب الماضي وهي تحاول إعادة إرساء المبادئ العرقيّة القديمة. وها هي بريطانيا تعلن رسميّا أنّها لم تعد دولة البريطانيين

من مواطنين اسكتلنديّين وغاليّين وأبناء المهاجرين من مستعمراتها السابقة، وأنّها أصبحت من الآن فصاعداً دولة الإنكليز المولودين من أمّهات إنكليزيّات. وها هي إسبانيا تحذو حذو جيرانها وتقرّر أن تضع حدّاً للخبث القوميّ، وتعلن أنّها لم تعد ملكاً لجميع الإسبانيين وتصبح صراحةً دولة قشتالية ديمقراطية تسخو على أقلّياتها الكتالونية والأندلسية والباسكية وتمنحهم استقلالية محدودة.

ستحقّق إسرائيل مصيرها إذا ما تجسّدت هذه التغييرات التاريخية على أرض الواقع، وتغدو «منارة للأغيار». وهكذا، تشعر براحة أكبر وتصبح أقلّ انعزالاً هي وسياسة الهويّة الحصريّة التي تنتهجها. لكن، ثمة ما يشوب هذه اللوحة: فالإجراءات من هذا النوع غير مقبولة في دولة «طبيعية» ترتكز على مبادئ جمهورانية. لم تكن الديمقراطية الليبرالية يوماً مجرّد أداة لتنظيم العلاقات الطبقيّة، بل ظهرت أيضاً على أنّها وسيلة يحدّد المواطنون هويّتهم من خلالها. ويُفترض أن يؤمنوا بأنّ هذه الديمقراطية هي ملكهم وأنّهم يعبّرون من خلالها مباشرةً عن سيادتهم. أدّى البعد النموذجي والتكاملي دوراً بارزاً في ظهور الدولة القومية الديمقراطية، على الرغم من الفجوة التي تفصل ما بين النماذج والوقائع.

تغيب عن عالمنا اليوم سياسات شبيهة بتلك التي تمارسها إسرائيل تجاه الأقلّيات التي لا تنتمي إلى الإثنية المسيطرة، إلا عن البلدان الشيوعية سابقاً من أوروبا الشرقية حيث يتمتّع اليمين القومي بحضور بارز، لا بل مهيمن.

وفقاً لروح القوانين السائدة، فإن إسرائيل لا تنتمي إلى مجموع المواطنين المقيمين فيها بقدر ما تنتمي إلى أشخاص غير إسرائيليين. وتظهر على أنّها الإرث الوطني لليهود الجدد من حول العالم - مثل بول وولفويتز (Wolfowitz)، الرئيس السابق للبنك الدولي، أو مايكل ليفي، فاعل الخير البريطاني الشهير، أو دومينيك ستروس - كان (Strauss-Kahn)، المدير العام السابق لصندوق النقد الدولي، أو فلاديمير غوسينسكي (Gusinsky)، الأوليغارشي الروسي المقيم في إسبانيا- أكثر ممّا هي عليه لعشرين بالمئة من مواطنيها، وهم عرب وُلد أهلهم وأجدادهم وأهل أجدادهم على هذه الأرض. لذلك، يشعر بعضٌ من كبار الأثرياء اليهود في كل أنحاء العالم أنّ من حقّهم التدخّل في شؤون إسرائيل: فمن خلال الاستثمار

الهائل في وسائل الإعلام وفي العملية السياسية، يؤثّرون أكثر فأكثر على الزعماء الإسرائيليين وتوجّهات البلد.

نجد من بين «اليهود الجدد» أيضاً مثقّفين يعرفون أنّ دولة اليهود ملكٌ لهم. فأمثال برنار هنري – ليفي أو ألين ديرشويتز (Dershowitz) أو ألكسندر آدلر أو هوارد جايكوبسون (Jacobson) أو ديفيد هوروفيتس (Horowitz) أو هنريك برودر (Broder) والعشرات غيرهم من مناصري الصهيونية الناشطين في مجالات عدّة من وسائل الإعلام الجماهيرية، لا يخطئون في ولاءاتهم السياسية: فالقُدس ملكُهم، على خلاف ما كانت تمثّل كلّ من موسكو للشيوعيين السابقين غير السوفيات، وبكين للماويّين في الستينيات. ومن غير الضروري لهذه الغاية أن يعرف «اليهود الجدد» تاريخ هذه الأرض أو جغرافيتها، أو أن يتعلّموا إحدى لغتيها (العبرية أو العربية)، أو أن يعملوا فيها، أو أن يسدّدوا الضرائب والرسوم، أو ـ لا سمح الله ـ أن ينخرطوا في جيشها! جُلّ ما عليهم فعله زيارة إسرائيل لمدّة قصيرة ونيل بطاقة الهوية والحصول على إقامة مؤقّتة، قبل العودة إلى ثقافتهم الوطنية ولغتهم الأم، وامتلاك الدولة اليهودية إلى الأبد، وذلك لمجرّد أنهم ولدوا من أمهات يهوديات!

في المقابل، لا يحق للسكّان العرب في إسرائيل، حتّى إن تزوّجوا فلسطينية من المناطق المحتلّة، اصطحابها إلى إسرائيل، خوفاً من أن تصبح مواطنة إسرائيلية ويرتفع بالتالي عدد السكّان غير اليهود في أرض الميعاد. أقول لمزيد من الوضوح: إذا جاء إلى إسرائيل مهاجرٌ يهودي من روسيا أو الولايات المتحدة برفقة زوجته، تصبح هذه الأخيرة مواطنة إسرائيلية، ولا تُعتبر هي وأطفالها يهوداً إلا إذا اعتنقوا اليهوديّة بحسب القانون الديني. بعبارة أخرى، يتغلّب واقع ألّا يكون المرء عربيّاً في بلاد «اليهود الجدد» على واقع ألّا يكون يهوديّاً. لطالما تمّ التساهل أكثر مع المهاجرين «البيض» الذين أتوا من القارّة الأوروبية أو الأميركية، على الرغم من أنّهم ليسوا يهوداً. ومن أجل تخفيف الثقل الديمغرافي الذي يشكّله العرب، بدا من المستحسن زيادة عدد السكان غير اليهود من الأوروبيين البيض.

ولا بُد مع ذلك، من معرفة أن الدولة اليهودية ليست يهوديةً جدّاً! أن يكون المرء يهوديّا في إسرائيل لا يعني بالضرورة أن يحترم الوصايا أو أن يؤمن بربّ اليهود. فلا ضير أن يلهو

مثلاً بالمعتقدات البوذيّة، على غرار دافيد بن غوريون، أو أن يأكل القريدس على غرار أريئيل شارون. ويمكنه ألّا يعتمر الكيبا، مثل أغلبية زعماء إسرائيل وقادتها العسكريين. طبعاً، لا تعمل وسائل النقل أيّام السبت، ولكنّ استخدام السيارات الخاصّة مسموح. وقد يتبادل الناس الإهانات في ملاعب كرة القدم يوم الراحة المقدّس من دون أن يتجرّأ أي سياسيّ متديّن على الاحتجاج. حتّى في عيد الغفران، وهو اليوم الأكثر تقديساً في الديانة اليهودية، يستطيع أطفال إسرائيل اللهو على درّاجاتهم الهوائية في كلّ ساحات المدينة. حتّى أنّ التظاهرات المعادية لليهود مشروعة في دولة اليهود شرط ألّا ينظّمها العرب.

إذن، ما معنى أن يكون المرء يهوديّا في دولة إسرائيل؟ يعني أن يكون مواطناً محظوظاً يتمتّع بامتيازات مرفوضة لغير اليهود، ولا سيّما العرب منهم. إن كان المرء يهوديّا، يمكنه أن يتماهى مع الدولة التي ترى نفسها انعكاس الجوهر اليهوديّ. إن كان يهوديّا، يمكنه أن يشتري قطعاً من الأرض لا يحقّ لمواطن غير يهودي الحصول عليها. إن كان يهوديّا، وحتى إن لم يفكّر في المكوث في إسرائيل سوى لفترة مؤقّتة، وحتى إن لم يُتقن اللغة العبرية، يمكنه أن يصبح حاكم المصرف المركزي الإسرائيلي الذي لا يوظّف أيّ مواطن إسرائيلي عربي. إن كان يهوديّا، يمكنه أن يكون وزير الشؤون الخارجية وأن يعيش بصفة دائمة في إحدى المستوطنات الواقعة خارج الحدود القانونية لإسرائيل، بجوار الفلسطينيين المجرَّدين من كل حقوقهم المدنية والمحرومين السيادة على أنفسهم. إن كان المرء يهوديّا، يمكنه أن ينشئ مستوطنات على أراضٍ ليست ملكه، وأن يجول أيضاً في يهودا والسامرة وعلى الطرق الملتفّة، حيث لا يحقّ للسكانِ المحليين التجوال بحرّية، وهم في داخل وطنهم. إن كان يهوديّا، فلن يقف على الحواجز، ولن يتعرّض للتعذيب، ولن يفتّش أحدٌ منزله في ساعات الليل المتأخّرة، ولن يُقتل برصاصة طائشة، ولن يشاهد تدمير منزله سهواً... فكلّ هذه الأفعال التي تتراكم منذ حوالى نصف قرن خلا مخصَّصة لاستهداف العرب لا غير.

***

ألا يتطابق وضع اليهوديّ في دولة إسرائيل في مطلع القرن الحادي والعشرين مع البيض في جنوب الولايات المتحدة في الخمسينيات أو مع الفرنسيّين في الجزائر قبل العام ١٩٦٢؟

ألا يشبه وضع اليهودي في إسرائيل وضع الأفريكان (المستوطنون الأوروبيون) في جنوب إفريقيا قبل العام ١٩٩٤؟ وربما قريباً سيشبه وضع الآري في ألمانيا في الثلاثينيات؟ (أرفض بصرامة التفكير بأي مقارنة مع الأربعينيات في ألمانيا).

في ظل هكذا ظروف، كيف يستطيع شخصٌ ليس مؤمناً متديّناً، بل إنسانوي ديمقراطي أو ليبرالي يتمتّع بحدٍّ أدنى من النزاهة، أن يستمرّ بالتعريف عن نفسه على أنّه يهودي؟ هل يرضى المتحدّر من اليهود المضطهدين أن يندرج ضمن قبيلة اليهود العلمانيين الجدد الذين ينظرون إلى إسرائيل وكأنّها ملكٌ حصريّ لهم؟ ألا يشكّل إعلان المرء أنّه يهودي في إسرائيل فعلَ انتماء إلى طبقة متميّزة تعيث حولها ظلماً لا يُحتمل؟ وما معنى أن يكون المرء يهوديّا علمانيّا خارج إسرائيل؟ هل من شرعيّة أخلاقيّة بعد في العام ٢٠١٣ للموقف الذي اتخذه يوليان طوفيم في العام ١٩٤٤، أو للموقف الذي اتخذه والداي اللذان هاما كلاجئين في أوروبا؟.

من هو يهودي في «الشتات»؟

العام ٢٠١١. يجرون معي مقابلة في حانوت كتب مرموقة في لندن بمناسبة صدور أحد مؤلفاتي. وقدمني عريف الأمسية، وهو فيلسوف لطيف ولاذع من أكسفورد، بإعجاب صريح. إنه مثلي نقدي تجاه السياسة العسكرية الإسرائيلية، ويمقت عنصريتها، وتبجحها بأنها تسعى لتكون يهودية، والأبارتهايد الذي تمارسه في المناطق المحتلة وما إلى ذلك. إلى جانب ذلك فإنه يتحفظ بنعومة من ادعائي حول عدم وجود شعب يهودي أبداً. وهو يشعر بأنه ينتمي إلى هذا الشعب، والأغلبية الساحقة من جمهور مستمعيّ اللندنيين اليساري والليبرالي، تهز رأسها علامة على الموافقة والتأييد لأقواله. سألته خلال الحوار الودي الذي حصل بيننا، عما هي الثقافة الشعبية لليهود العلمانيين من أمثاله، وما هي التربية اليهودية التي بإمكانه أن يكسبها لأولاده؟. وقد استصعب الإجابة.

نهضت امرأة مسنة من مقعدها وأعلنت بانزعاج خفيف أنه إذا ما سلبت الهوية اليهودية منها بهذه الحجج فإنه لن يبقى لديها شيء. وقد فوجئت، وهدأت من روعها قائلاً إنه ليس من وظيفتي أبداً أن ألغي التعريفات الذاتية، وإنني متأكد من أنها غنية بهويات كثيرة في موازاة كونها يهودية. بعد ذلك سألتها فيما إذا كنت أنا أيضا أتمتع بحرية كحريتها، وهل مسموح لي بالقدر نفسه أن أعرّف نفسي كما أشاء وعدم الاتكاء على ذاكرة مؤلمة، يتم استغلالها على نحو يزداد سوءا أكثر فأكثر.

كان بين جمهور المستمعين عدد قليل تخيلت أنهم لا يُحسبون يهودا، «رغم» مظهرهم الشرق أوسطي. ولم يجرؤ أحد منهم على طلب الإذن بالتحدث والتدخل في الجدل. وفجأة شعرت في داخلي بعدم ارتياح آخذ في الازدياد. هل من كل الخطاب الذي يعتبر «لائقاً سياسياً»

رغم كونه غير صهيوني، لم يعد ثمة خطاب حصري ومتميز لـ «اليهود الجدد» من المفترض بالأغيار أن يشاركوا فيه؟ من خلال هذا التساؤل خطرت لي وتفاعلت داخلي قضية أصعب لم تطرأ على بالي من قبل قطّ.

ثمة في سياسة الهويات المعاصرة جدران، أسوار وحواجز تعرّف وتتاخم الجماعات الصغيرة والكبيرة على حد سواء. وبالإمكان تجاوز بعضها بصورة قانونية، وبالإمكان الالتفاف أو القفز عن بعضها الآخر، وذلك من أجل الانضمام إلى الغاية الجماعية المطلوبة. وثمة الكثير من الأندية الاجتماعية، السياسية، القومية والدينية المفتوحة مبدئيا من أجل الانضمام إليها. على سبيل المثال، بالإمكان أن تصبح مواطنا أميركيا، بريطانيا، فرنسيا أو إسرائيليا وبالإمكان أن تتوقف عن أن تكون مواطنا كهذا. وبالإمكان طبعا أن تصبح نشطا في حركة اشتراكية، زعيم تيار ليبرالي أو عضو حزب محافظ، والانسحاب من أي منها. وتستوعب جميع الكنائس، كما هو معروف، متنصرين جداً فيها، وأي إنسان بإمكانه أن يتحوّل إلى مسلم مؤمن أو يهودي ورع.

لكن- وقد كانت هذه هي القضية الجديدة التي صدمتني من الأعماق ولم تدعني وشأني: كيف يمكن أن تكون يهوديا علمانيا إذا لم تولد لوالدين يعتبران يهوديين؟ هل ثمة طريقة ما للانضمام إلى اليهودية العلمانية كخطوة تطوعية، باختيار حرّ، أم أن هذا نادٍ حصري ومغلق يختار البشر وفقا لأصلهم؟ أي أنه أليس هذا بمثابة ناد مرموق مغلق، اليوم، وعن طريق الخطأ، ولكن ليس صدفة، يتخيّل نفسه سليل سبط قديم؟

نعم، لا شك في أنه في الماضي القريب - البعيد لم يطلب أحد الانضمام إلى هذا النادي. لم يكن هناك «أغيار» يحسدون مصير أولئك المُعرّفين على أنهم يهود، ليس في المناطق التي سكنها اليهود في الإمبراطورية الروسية، ولا في باريس المحتلة ولا قبل محارق أوشفيتز. لكن لحسن الحظ ليس هكذا أبداً هو الوضع الآن في العالم الغربي المعاصر، الذي يعبر عن ندمه على جرائم ملاحقة اليهود في الماضي ويسعى إلى التكفير عن مظالمه بكل ثمن. وأصبحت الموضة الأبرز أن يكون المرء معرّفا كـ«يهودي» في جامعات نيويورك، ستوديوهات هوليوود، اللوبي السياسي في واشنطن، شركات عديدة في وول ستريت، عالم الصحافة في برلين وباريس

وصالونات لندن الثقافية.

ولا يتعين عليك بذل مجهود زائد من أجل ذلك. فأنت لست بحاجة إلى دراسة الدين أو معرفة تاريخ اليهود، ولا يفترض بك أن تؤمن بإله متميز، وأن تتعلم لغة جديدة، وبالطبع لست مضطرا التقييد متعك الحسية والمادية والتقيد بوصايا صارمة. فأنت يهودي لأنك ولدت هكذا وأنت واثق من أنه مثلما لا يمكن أن يصبح المربع دائرة فلا أحد آخر يمكنه أن يصبح كهذا، وليس مهما كيف سيتصرف ومدى الجهد الذي سيبذله.

ونشهد في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين في العالم الغربي الضعف النسبي للقومية الكلاسيكية التي بالكاد احتفلت بمرور مئتي عام على ولادتها. وبدأت العولمة الاقتصادية وأزماتها والعولمة الثقافية المحمولة على كاهل الإعلام الذي يقتحم كافة القيود في فضم أطر القومية الصارمة السابقة. وإذا كان المطلوب في الماضي ولاء قاطعا ومطلقا لعلم واحد، سيادة وطنية واحدة وثقافة مهيمنة واحدة، وتماثلا مطلقا معها، فإنه منذ الآن ثمة حيز أوسع لهويات اجتماعية جزئية، وثقافات فرعية ثانوية، وحتى لهويات عابرة للقوميات - بالطبع ما دامت لا تهدد المبدأ الأعلى المتمثل بسيادة الدولة القومية.

وباتت الرغبة في تحقيق انتمائك كيهودي أسهل اليوم مما كانت عليه في الماضي. لكن رغم ذلك توجد مشكلة لدى اليهود الجدد: بما أنه لا يوجد لليهودية العلمانية أي تعبير ثقافي محدد وأي ملمح خارجي، كيف بالإمكان رغم ذلك التسبب بشعور الانتماء للقبيلة المتميزة بالاختلاف عن بيئتها؟ ولذا فإنه في الولايات المتحدة أساساً ولكن ليس فيها فقط، يسافر الملحدون بين الفينة والأخرى بسياراتهم إلى الكنيس في يوم السبت، ويختنون أبناءهم (لأن الطقس الديني، مثلما عرفه سيدنا إبراهيم، «يقلص» خطر الإصابة بالإيدز)، ويجرون لهم حفل بار - ميتزفه (بلوغ سنّ الرشد) فاخرا غير مقصور فقط على طهارة الطعام الحلال وفقا للشريعة اليهودية، ويزوجونهم تحت رعاية حاخامين، يفضل أن يكونوا إصلاحيين إذا كان هناك حاخامون كهؤلاء في المنطقة. وهكذا يظهر اليهودي أنه ينتمي إلى «الإثنوس» القديم والمتميز من دون بذل أي جهد لا لزوم له.

وفي الظاهر، فإنه في جميع هذه الممارسات الدينية الزائفة - حيث أن هؤلاء أناس يفتقرون

إلى إيمان جادّ بالرب - لا يوجد أي ضرر تقريبا. وينبغي احترام تعطش البشر إلى إطار هوية حميمي والراحة الكامنة فيه. وفي العصر الذي أصبحت تتراجع فيه قدرة الدولة القومية على منح معنى للجماعات الكبيرة التي داخلها، وفيما أخذ مخزون الأعداء القوميين ينفد، وفيما المثاليات السياسية والاجتماعية الشاملة الكبرى آخذة في الفناء، فإن الحنين المتجدد إلى المجتمع - شبه الديني وشبه القبلي - من شأنه أن يمنح قيمة مضافة لدورة الحياة اليومية.

وإذا كان الآباء العلمانيون يوافقون لغرض الحفاظ على الهوية اليهودية على ختان أبنائهم الرضع، فإنه ربما بالإمكان التعامل مع ذلك بضبط نفس متسامح، حتى لو لم يكن في إزالة «النجاسة» أي شيء عقلاني، وحتى إذا تم بذلك المساس بالحق الأساس للإنسان في سلامة جسده. لكن، إذا كان الآباء يمنعون أولادهم المراهقين من الوقوع في حب من هم ليسوا يهودا، بسبب التحسب من أنهم قد يتزوجونهم، من أجل صيانة الهوية اليهودية المتخيلة، فإنه يجب التنديد بهذه السياسة كعنصرية مبتذلة.

في الواقع، ثمة ما ينبغي أن يتخوف منه «اليهود الإثنيون»: أكثر من خمسين بالمئة من نسل اليهود الأميركيين ونسبة ليست أقل من نسل اليهود الأوروبيين يتزوجون من رجال ونساء «أغيار» وتبذل المؤسسات الجماهيرية، بمساعدة الوكالة اليهودية، كل ما في وسعها، من دون خجل، من أجل كبح هذه العملية. وهي تعلم جيدا أنه بسبب مساوئ رهاب اليهود، فإن الحاجة العميقة إلى الحب والتزاوج المتحرر من قيود التقاليد هو الذي يؤدي إلى انقراض بطيء، لكن متواصل، لـ «الشعب اليهودي». لذلك أعلنت غولدا مئير، رئيسة حكومة إسرائيل في السبعينيات، أن كل من يتزوج من غير يهودي أو غير يهودية إنما ينضم إلى الملايين الستة (ضحايا النازية).

وثمة قناة أخرى للحفاظ بكل ثمن على هوية يهودية منفصلة وحصرية هي طقس المحرقة الذي تم ذكره آنفا. وكما ذُكر، فإنه لا غضاضة في ذاكرة الرعب الأوروبية. بل على العكس، فنسيانه في العالم الغربي سيزيد الطين بلة. لكن، عندما يحول الصهيونيون ومؤيدوهم ذاكرة الدمار إلى دين علماني، إلى جانب طقوس الحجيج إلى مراكز الإبادة المرممة، وفيما هم يُدخلون خلال ذلك جنون اضطهاد بنيوي إلى الوعي الذاتي لجيل الغد الـ «يهودي»، فإنه ينبغي

التوقف والقول: تكون الهوية التي يتم بناؤها بواسطة التجنيد الدائم لصدمة من الماضي في غالب الأحيان منحرفة ومن شأنها أن تشكل خطرا على من يحملونها وعلى الآخرين الذين يعيشون إلى جانبهم. ورغم أن إسرائيل هي الدولة النووية الوحيدة في الشرق الأوسط فإنها تنمي ذعرا دائما بين جميع مؤيديها في العالم، وتضع تهديدا بمحرقة أخرى كخط في الأفق المستقبلي - وهذا، بقدر كبير، هو وصفة لكوارث مستقبلية.

علينا أن نعترف: إن المحور المركزي للحفاظ على الهوية اليهودية العلمانية هو تنمية العلاقة مع دولة إسرائيل والتجند الكامل من أجل دعمها. وإذا كانت إسرائيل حتى حرب ١٩٦٧ قد احتلت مكانا هامشيا نسبيا في حياة ذراري اليهود في أنحاء العالم الغربي، فإنه منذ هذه الحرب تحولت الدولة الصغيرة التي أظهرت قوة بالغة وباتت دولة عظمى صغيرة، إلى مصدر اعتزاز لعدد غير قليل من ذراري اليهود. ومعروف أن أي قوة تجذب نحوها جموعا من الأتباع وتشكل مركزا مغناطيسيا للإعجاب وإقامة الطقوس. وأصبح جنود الجيش الإسرائيلي الأقوياء والطوال، الجالسون على دبابات هائلة والذين يستندون بصلف إلى طائرات مقاتلة براقة، جزءا من الصورة الجماعية «الإثنية» في بطاقة الهوية المتخيلة للكثيرين من اليهود الجدد في العالم. وبذلك اقتنت إسرائيل بنظر مؤسسات الجاليات هيبة عرفت جيدا كيفية استخراج منفعة كاملة منها.

توقفت الوكالة اليهودية منذ هذه اللحظة عن محاولاتها غير المجدية الأخيرة من أجل إحضار «اليهود المطاردين» إلى إسرائيل. ومنذ سقوط الاتحاد السوفييتي لا يوجد الآن مكان في العالم ليس بإمكان ذراري الشعب المختار أن ينهضوا ويهاجروا منه إليها. وقد غيرت الصهيونية الغاية التي تأسست من أجلها وجددت شبابها بواسطة خطوة مختلفة ومنعشة. منذ الآن، وأكثر من أي مرة في الماضي، يُطالب أولئك الذين يريدون أن يُعرفوا كمن ينتمون لذرية إبراهيم أن يقدموا تبرعا ماليا لبلاد اليهود الآخذة في التوسع إقليميا، وحتى ممارسة كل قوة تأثيرهم ونفوذهم على السياسة الخارجية والرأي العام في دولهم. وتبين أن هذا التأثير، بواسطة جماعات لوبي سياسية وقنوات إعلامية مركزية، ناجع جداً. وفي عصر الشرعية المتزايدة للطائفية، وخاصة في الفترة التي تنمي الهوية الحضارية لـ «اليهودية - المسيحية»

وتقدس «الصراع بين الحضارات»، بات بالإمكان أكثر مما مضى أن تكون يهوديا فخورا يقف الآن إلى جانب الأقوياء والمسيطرين على التاريخ.

***

واضح أنه ما زال ثمة قلائل آخرون يعرّفون أنفسهم بأنهم يهود علمانيون، ويحاولون بصورة منظمة أو فردية الاحتجاج على سياسة الفصل والاحتلال الإسرائيليتين. وبحق فإنهم ينظرون إلى هذه السياسة على أنها تهديد حقيقي من شأنه أن يعاود رهاب اليهود الذي يرى بشكل أعمى وغبي جميع ذراري اليهود على أنهم شعب - عرق منفصل، والأخطر من ذلك أنها تخلط بينهم وبين الصهيونيين.[1] غير أن رغبتهم في الانتماء إلى هوية «إثنية» يهودية من دون القدرة على ملئها بمضامين ثقافية إيجابية، يجعل موقفهم في أفضل الأحوال تكتيكا مؤقتا يفتقر إلى ثقل ومستقبل سياسي، وفي أسوأ الأحوال، خلافا لنيتهم، يعزز بشكل غير مباشر الشعور القبلي (ففي نهاية المطاف، جميعنا يهود).

وبالتأكيد، فإن الحساسية المعينة تجاه سياسة الاحتلال الإسرائيلي يمكن أن تكون موجودة، وهي موجودة، بين هؤلاء اليهود ويجب الاعتراف والترحيب بها. لكن إذا كان أولئك الذين يعتبرون أنفسهم يهودا غير صهيونيين، لكنهم لم يعيشوا في إسرائيل، وبالتالي فإنهم لا يعرفون لغتها ولم يمتصوا ثقافتها، ويطالبون لأنفسهم بالحق في نقد إسرائيل أكثر من «غير اليهود»، فلماذا لا يتم منح المؤيدين للصهيونيين الزاعقين حقا زائدا في كل ما يتعلق بالتدخل النشط لتحديد مصير إسرائيل ومستقبلها؟

---

١ . لا شك تقريبا في أن صعود موجة جديدة من رهاب اليهود بين المسلمين الراديكاليين مرتبط بشكل وثيق بالصراع الإسرائيلي - الفلسطيني.

الخروج من النادي الحصري

ترك والدي الكُتّاب في النصف الأول من القرن العشرين، ولم يعد يرتاد الكنيس، وظلّ طيلة حياته ينفر من الحاخامين. والآن، في سني المتقدّم، في النصف الأول من القرن الواحد والعشرين، أرى أن من واجبي الأخلاقي الانفصال نهائيا عن اليهودية المتمركزة حول ذاتها القبلية. وأعي جيدا اليوم حقيقة أني لم أكن يهوديا علمانيا أبدا لأن شيئاً متخيلاً كهذا يفتقر إلى أي أساس وإلى أي أفق ثقافي يميزه، ومجرد وجوده مرتبط بمفهوم استعراقي أجوف. وقد أخطأت في حينه عندما قدّرت أن ثقافة البيديش التي من خلالها تبلورت حياتي في بيت والديّ كانت الثقافة اليهودية العلمانية بأل التعريف. ولاحقا، سوية مع برنارد - لازار، مردخاي أنيليفيتش (Anielewicz)، مارسيل رايمن (Rajman) ومارك إدلمان (Edelman)، عرّفت نفسي مدة طويلة كابن لأقلية معذبة ومرفوضة. وألححت على أن أكون يهوديا مع فلاديمير ميديم (Medem)، ليئون بلوم، يوليان طوفيم ومع كثيرين آخرين وافقوا على حمل هذه الهوية من جراء الملاحقة والجلادين، وبسبب القتل والقتلى. والآن، بعد أن أصبحت أعي بشدة أنهم يصنفونني في إسرائيل، غصبا ووفق القانون، ضمن إثنوس خيالي من المطارِدين والمؤيدين، وعندما يشملونني في أنحاء العالم في نادٍ حصري من المنتخبين ومن المعجبين بهم، فإني أطلب الانسحاب، والكفّ عن رؤية نفسي يهوديا.

ورغم أن دولة إسرائيل ليست مستعدة لتغيير إشارتي القومية من «يهودي» إلى «إسرائيلي»، فإنني كلي أمل بأن يحترم محبو السامية والصهيونيون المجندون والمعادون للصهيونية المتحمسون، الذين يتغذون دائما من مفاهيم جوهرية، رغبتي، وأن يتوقفوا عن تصنيفي على هذا النحو. والحقيقة هي أنني لم أعد أكترث أكثر مما ينبغي بكل هؤلاء، ولا ممن لا يزالون

معادين سخفاء للسامية أيضا. وعلى ضوء التاريخ المأساوي للقرن العشرين فإنني لست مستعدا أكثر وبأي حال لأن أنتمي إلى أندية مغلقة مهيبة ومتقوقعة، وهي أندية ليس بإمكان الآخرين الانضمام إليها وليست معدة لهم.

ربما سأغدو برفضي أن أكون يهوديا كائنا حيا يواجه خطر الانقراض. وبإصراري على أن ماضيّ التاريخي فقط كان يهوديا، وحاضري اليومي، في السراء والضراء، هو إسرائيلي، ومستقبلي ومستقبل أولادي المنتظر يجب أن يكون موجها أساساً وفق مبادئ شمولية مفتوحة وسخية، فإني أعمل ضد الموضات المسيطرة وضد البوصلة الاستعراقية التي توجهها. وكمؤرخ للعصر الحديث فإني أفترض أيضا أن مدى البعد الثقافي بيني وبين أولاد أحفادي سيكون على الأقل، إن لم يكن أكثر، مثل مدى البعد الثقافي الذي يفصل بيني وبين والد جدي، وهذا أمر جيد. والمشكلة هي أنه يعيش حولي بشر كثيرون ممن يؤمنون بأن نسلهم سيكون شبيها لهم من كافة النواحي، لأن الشعوب موجودة إلى الأبد برأيهم، وخاصة شعوب - العرق مثل شعبهم اليهودي.

وأنا أعي أنني أعيش في واحد من أكثر المجتمعات القائمة في العالم الغربي عنصرية. إن العنصرية موجودة طبعا في كل مكان تقريبا، لكن في إسرائيل هي بنيوية بروح القوانين، وتُدرّس في جهاز التربية والتعليم، ومنتشرة في وسائل الإعلام، والأمر المروّع أكثر من أي شيء أن العنصريين فيها لا يعرفون أنهم كذلك ولا يشعرون أبدا بوجوب الاعتذار. وبسبب انعدام الحاجة إلى التبرير تشكل إسرائيل اليوم نموذجاً يُحتذى في نظر معظم حركات اليمين المتطرف في أنحاء العالم - وهي حركات كانت معروفة في الماضي بعدائها للسامية.

بنظري، ما عاد يُحتمل أكثر فأكثر العيش في مجتمع كهذا، لكنني سأعترف بالحقيقة، وهي أنه لن يكون أقل صعوبة بالنسبة لي أن أسكن في مكان آخر. فأنا جزء من المنتج الثقافي، اللغوي وحتى العقلي للمشروع الصهيوني ولا يمكنني أن أتهرب من ذلك. أنا إسرائيلي، سواء بصيرورتي اليومية أو بثقافتي الأساسية. ولا أعتز بذلك بشكل خاص مثلما لا أعتز بأني ذكر ذو عينين بنيتين وقامة متوسطة. وحتى أنني في أحيان متقاربة جدا أخجل بإسرائيل، وخاصة في لحظات ذروة أدائها العسكري عديم الرحمة تجاه الضعفاء معدومي الحماية الذين

لا ينتمون إلى «الشعب المختار».

وكان حلمي غير الواقعي الآخذ في التلاشي أن يشعر الفلسطيني - الإسرائيلي في تل أبيب مثلما يشعر اليهودي - الأميركي في نيويورك على الأقل. وقد أردت، وناضلت من أجل، أن تكون حياة الإسرائيلي المسلم في القدس مشابهة لحياة الفرنسي اليهودي الذي يسكن في وسط باريس. وتمنيت أن يحظى الأولاد الإسرائيليون الذين ولدوا لمهاجرة إفريقية - مسيحية بالتعامل نفسه الذي يُمنح في لندن للأولاد البريطانيين الذين ولدوا لمهاجرة هندوسية من شبه القارة الهندية. وأملت من كل قلبي بإقامة مدارس مشتركة لجميع التلامذة الإسرائيليين. وأعرف اليوم أن حلمي كان طموحاً أكثر مما ينبغي، وأن مطالبي كانت مبالغة ووقحة - ومجرد طرحها اعتبر وما زال يعتبر بنظر الصهيونيين ومؤيديهم مساساً بالطابع اليهودي لدولة إسرائيل، وبالتالي معاديا للسامية.

لكن، ورغم أن هذا يمكن أن يبدو غريبا، فإنه خلافا للهوية اليهودية العلمانية المغلقة، تحتوي الإسرائيلية، كونها ظاهرة سياسية - ثقافية وليست «إثنية»، على قدرة كامنة لهوية مفتوحة وشاملة بالإمكان الانضمام إليها. إن بالإمكان بموجب القانون أن تكون مواطنا إسرائيليا من دون أن تكون يهوديا «إثنياً» علمانيا، وبالإمكان المشاركة في ثقافتها الرفيعة وإلى جانب ذلك الحفاظ على ثقافة ثانوية، وبالإمكان التحدث بلغتها المهيمنة وفي موازاة ذلك تنمية لغات ثانوية، وإتباع أنماط حياة متنوعة وصهر أجزاء منها سوية. وواضح أنه من أجل تطبيق هذه القدرة الكامنة السياسية الجمهورانية بكاملها فإنه كان جديرا التنازل عن الانغلاق القبلي منذ فترة طويلة، وتعلم احترام الآخر، وتقبله كمتساو وتغيير قوانين الأساس الإسرائيلية من أجل ملاءمتها مع مبادئ الديمقراطية.

وإذا نسينا للحظة: قبل كل هذا، وقبل طرح أفكار حول تغيير سياسة الهويات الإسرائيلية، كان يتعين منذ وقت طويل التحرر من الاحتلال الطويل والملعون الذي يودي بنا إلى التهلكة. إن التعامل مع الآخر الذي يعيش كمواطن من الدرجة الثانية في إسرائيل مقرون ومشبوك بالتعامل مع الآخر الذي يعيش في ضائقة بالغة في حضيض سلسلة الغذاء الصهيونية. بقي هؤلاء السكان الرازحون تحت الاحتلال ويتعرضون للقمع، والذين يعيشون منذ قرابة

خمسين عاما من دون حقوق سياسية أو مدنية على أرض ترى فيها «دولة اليهود» أنها لها، متروكين على قارعة طريق السياسة الدولية. وأعترف اليوم بأن حلمي حول إنهاء الاحتلال وإقامة كونفدرالية بين جمهورية إسرائيلية وجمهورية فلسطينية كان على ما يبدو وهما لم يأخذ بالحسبان بصورة كافية علاقات القوى بين الجانبين.

ويبدو أكثر فأكثر أن كل شيء بات متأخرا وميؤوسا منه، وأن أي تفكير جاد حول حل سياسي هو غباء. أصبحت إسرائيل معتادة على السيطرة الكولونيالية على شعب آخر، وغير قادرة على التخلص منها بنفسها. ولشدة الأسف فإن العالم لا يفعل ما فيه الكفاية وغير قادر، بسبب موانعه وضميره السيئ، على إقناعها بالانسحاب إلى حدودها التي حققتها في العام ١٩٤٨. كذلك فإن إسرائيل ليست مستعدة بأي حال لضم الأراضي المحتلة رسميا لأنها بذلك ستكون ملزمة بمنح مواطنة متساوية للرازحين تحت الاحتلال وستتحول إلى دولة ثنائية القومية. ويبدو أحيانا أن الأفعى الميثولوجية التي ابتلعت فريستها الإقليمية تفضل الاختناق ببطء على أن تتنازل.

هل تبقى لي، في المقابل، التنازل فقط؟ إنني أعيش في تناقض عميق: أمام مركزية العرق اليهودي المتصاعدة والتي تنغلق عليّ فإني أشعر كشتاتيّ. وإلى جانب ذلك، أتحدث وأكتب وأحلم بالعبرية أساساً، وعندما أتجوّل في خارج البلد أشتاق إلى هذه اللغة التي تشكل وعاء مركزيا لمشاعري وأفكاري. وعندما لا أكون في إسرائيل فإني أحن إلى مناظر ضاحيتي في تل أبيب أيضا، وأنتظر اللحظة التي سأتمكن فيها من العودة إليها. ومن أجل إسكات هذا الحنين فإني لا أرتاد كُنُسا، لأنهم يصلون فيها بلغة مختلفة عن لغتي، والأشخاص الذين يرتادونها لا يفهمون أبدا معنى الإسرائيلية بالنسبة لي، ولا يطلبون أبدا تقاسمها معي. وجامعة لندن بطلابها وطالباتها، وليس اليشيفوت وطلابها (لا توجد فيها طالبات)، مشابهة بنظري للحرم الجامعي الإسرائيلي الذي أعمل فيه. وتبدو لي مقاهي منهاتن بالذات، وليس المدارس الدينية في بروكلين، مرحبة ومغرية مثلها مثل المقاهي في تل أبيب. وأتذكر لدى دخولي إلى المكتبات الوافرة في باريس أسبوع الكتاب العبري، الذي ينظم كل عام، وليس الأدبيات المقدسة لآباء آبائي.

***

إن هذه العلاقة العميقة مع المكان إنما تزيد من مشاعري المتشائمة تجاهه فقط. ولذلك فإنني في أحيان متقاربة أغرق في سوداوية تبكي على الحاضر ويتملكها الهلع من المستقبل. أنا متعب وأشعر أن أوراق الحكمة الأخيرة آخذة بالتساقط بسبب أدائنا السياسي، فيما لا نزال معرضين لنزوات سحرة قبيلة مسرنمين. غير أنني لست فيلسوفا ميتافيزيقيا وإنما مؤرخ مقارن، ولذا فإنه لا يمكنني السماح لنفسي بأن أكون مؤمنا كاملا بالقضاء والقدر. أؤمن بأنه إذا كانت البشرية قد أجتازت القرن العشرين من دون حرب نووية، فإن كل شيء يكاد يكون محتملا في الشرق الأوسط. وينبغي من أجل ذلك تذكر مقولة ثيودور هرتسل، ذلك الحالم المسؤول تاريخياً عن كوني إسرائيلياً– - إذا أردتم فهذه ليست أسطورة.

وكواحد من نسل مطاردين نجوا من الجحيم في أوروبا الأربعينيات، ولم يفقدوا الأمل بحياة أفضل، فإن ملاك التاريخ المذعور لم يمنحني تصريحا بالتنازل واليأس. ولذا ومن أجل تقريب غد آخر سأستمر، رغما عن أنف الذين ينتقدونني، في كتابة مؤلفات شبيهة بهذا الذي تنهون قراءته الآن.

ملحق: تبيئة الماضي أو جعله إشكالياً[1]

وما زال الشتات الذي يتم القضاء عليه وتجميعه في إسرائيل لا يشكل شعبا، وإنما خليطا كثيرا وغبار بشر، دون لغة، دون تعليم، دون جذور ودون رضاعة من التراث وحلم الأمّة.

دافيد بن غوريون، «تميز وهدف»، ١٩٥٠

صدر كتابي «متى وكيف اخترع الشعب اليهودي؟» لأول مرة بالعبرية والمقالات الأولى حوله نُشرت بهذه اللغة.[2] واستتبع صدور الكتاب بعشرين لغة أخرى عدداً غير نهائي من ردات الفعل. وأشك في ما إذا كان بإمكاني في هذا الملحق القصير أن أضع مجموعة كاملة من التسويغات لحججي ونقد الانتقادات بحيث تشملها كلها. وأشعر بشكل خاص أنني عاجز أمام أولئك الذين ادعوا بأن كل ما جاء في كتابي كان كاذبا، واعترفوا في الوقت نفسه بأنني أقتحم أبوابا مفتوحة وأن كل ما كتبته كان معروفا ومقبولا قديما. ولشدة الأسف، فإن

١ . ظهرت صيغة مختلفة قليلاً عن هذا الملحق لأول مرة في *Le Débat Histoire, Politique*، مجلة بيير نورا *(Nora)*، في عدد كانون الثاني – شباط العام ٢٠١٢. واستخدمت بعد ذلك كخاتمة لطبعة لاحقة من ترجمة كتابي إلى الانكليزية والفرنسية. ورغم أنها تشمل تكرارا لعدة استنتاجات فكرية تم طرحها في «كيف لم أعد يهوديا» فإني أعتقد أنها قد تساهم في توضيح بعضها.

٢ . دار النشر ريسلينغ، ٢٠٠٨. (صدرت ترجمة عربية لهذا الكتاب عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية– مدار بعنوان «اختراع الشعب اليهودي»– المترجم).

هؤلاء المنتقدين لم يفهموا جيدا أبدا معنى الكتابة التاريخية: ليس العثور على الحقائق بالذات هو ما يرسخ طبيعة الرواية المحكية، وإنما أساساً تنظيم المعطيات وتحديد التراتبيات في ما بينها.

أولا، من أجل منع أي سوء فهم، فإنني أشدّد على أن كتابي الـ «الفضائحي» لم يتطلع لأن يكون تاريخ اليهود. وكان لبّه بمثابة نقد لعملية ابتكار المصطلحات وهيكلة الهستوريوغرافيا كما جرت حتى الآن. بالإضافة إلى ذلك، فإنه في نهايته اقترح وصف ملامح مهد قومية دولة إسرائيل التي ساعد المؤرخون كثيرا في صنعها وترسيخها. ولولا الإعداد الأيديولوجي الذي ساهم في نمو أساطير مؤسسة وبلورتها، فإن ثمة شكاً في ما إذا كان الاستيطان الصهيوني سيخرج إلى حيز التنفيذ، وبالتأكيد ليس بصورته الحالية. بل على العكس تماما، فهيكلة التاريخ التي تغذي أساطير قومية ليست حصرية للمشروع الصهيوني، إذ إنها تقوم بوظيفة جوهرية في بلورة الوعي الجماعي في شتى أنحاء الحداثة العالمية. ونعلم جميعا الآن أن الذاكرة القومية لا يمكن أن تولد من دون العمل الوفي لـ «الأمناء المعتمدين».

الشعب اليهودي كان موجوداً منذ الأزل

إن الاستخدام السائد للمصطلح العائم «شعب» تغير في العصر الحديث. وإذا ما تم تطبيقه في الماضي البعيد على مجموعات دينية مثل «شعب إسرائيل» أو «الشعب المسيحي» و«شعب الرب» وما إلى ذلك، فإن استخدامه في العصر الحديث وُجه إلى كتل بشرية تتمسك بقاسم مشترك واسع من العناصر الثقافية واللغوية العلمانية. وعموما، بالإمكان تعريف مجموعة بشرية بصعوبة كبيرة بمصطلح «شعب» قبل ظهور الطباعة، صناعة الكتب، الصحيفة، والتعليم الحكومي. وعندما كان مستوى الاتصال بين قبيلة وأخرى ضئيلا وعرضيا، وفي الفترة التي كان فيها خليط اللهجات مختلفا بين وادٍ وآخر، وفي العصر الذي كانت فيه المفردات اللغوية المقلصة للفلاح أو الراعي تدور بمعظمها حول عمله أو طقوسه - ثمة شك في ما إذا كانت هناك شعوب حقيقية. إن تعريف مجتمع أميّ من المنتجين - الزراعيين كـ «شعب» بدا لي إشكاليا، وبرأيي كان ينطوي، بهذا القدر أو ذاك، على مفارقة تاريخية معوقة. وعلى سبيل المثال، من المضحك والمسلي جداً أن تقرأ كتبا تاريخية صهيونية تصف مملكة «الهيكل الثاني» بأنها دولة

قومية. فمن الواضح أن المجتمع الذي تحدث فيه الحكام في العاصمة باللغة الآرامية، وأغلبية الرعايا كانت ما زالت تتواصل بلهجات مختلفة من العبرية، وتجار المملكة ازدهروا وازدادوا ثراء باليونانية المنتشرة، لم يكن بأي حال قومية، وثمة شك فيما إذا كان بالإمكان وصفه بأنه شعب.

لقد كان المؤرخون - المتعلقون دائما بالكلمات المكتوبة، وهي كلمات أكسبتها مراكز القوة الثقافية للماضي - يميلون في غالب الأحيان إلى التعميمات غير المحاذرة، والتي جرفوا من خلالها مجمل مجتمعات الماضي إلى هويات نخبوية شهدت عليها الوثائق التاريخية. لكن في ظل الممالك والإمارات، وفي ظل اللغات الإدارية السلطوية، عاش أناس كان مدى تماثلهم مع نظام المملكة، في غالب الأحيان، أقرب إلى الصفر. وإذا كانت هناك هوية أيديولوجية مع الحكام فإنها ربطت أساساً بين نبلاء الأراضي ونخب المدينة القلائل الذين كانوا تحت رعاية الحاكم ورسخوا حكمه.

لم يكن هناك، قبل ظهور الحداثة، مثقفون عبروا عن، أو مثلوا أجواء عامة الـ «شعب». وإلى جانب الكتبة ومؤرخي المملكة، فإن المثقفين الذي اهتموا فعلا بإقامة علاقة شخصية مع فئات واسعة وتوسيعها ونشر قضيتهم في أوساطها كانوا رجال الدين. وكان مدى الحكم الذاتي النسبي الذي حاول هؤلاء امتلاكه في مواجهة الحاكم مرتبطا بتعزيز الإيمان وترسيخه بين صفوف جمهور واسع. وثمة شرط آخر لقوة وكلاء الدين، هو التضامن الأيديولوجي والاتصالات المتشعبة فيما بينهم. فهم لم ينموا الإيمان فقط، وإنما كانوا الوحيدين عمليا الذين بلوروا وغرسوا ذاكرات جماعية. ولذا، فإن البرابرة الذين تهوّدوا في جبال الأطلس عرفوا عن الخروج من مصر وإنزال التوراة في سيناء أكثر مما عرفوا عن الأمير الذي كان يحكم في العاصمة البعيدة. وهكذا أيضا هو حال الكثير من الفلاحين في مملكة فرنسا الذين عرفوا قصة ولادة يسوع، لكنهم لم يعرفوا اسم ملكهم.

ومثلما أنه لم يكن يوجد قبل خمسمئة عام شعب فرنسي، شعب ايطالي، شعب روسي أو شعب فيتنامي، فإنه لم يكن في أنحاء العالم شعب يهودي. ولا شك في أنه كانت هناك هوية يهودية شعائرية وإيمانية مهمة، وكانت قوية جدا أحيانا وضعيفة أحيانا أخرى، لكن كلما كانت العناصر الثقافية لهذه الجالية أو تلك بعيدة عن الشعائر الدينية نفسها، فإنها كانت

شبيهة أكثر بالممارسات الثقافية واللغوية التي كانت موجودة في بيئتها غير اليهودية. وأرغمت الفروق الهائلة في الثقافة اليومية التي كانت موجودة بين الجاليات اليهودية في أنحاء العالم ما قبل المعاصر المؤرخين الصهيونيين على التشديد على أصلهم الـ «إثني» الواحد. وكان يجب أن يتسلسل أصلهم كلهم أو معظمهم من العبرانيين القدماء. ومثلما ذكرت في كتابي المذكور أعلاه، فإن معظم الصهيونيين لم يفكروا فعلا بعرق طاهر - إذ إن الديانة اليهودية لم تسمح لهم بالقيام بذلك - لكن أغلبيتهم العظمى شددت على الأصل البيولوجي المشترك كعنصر حاسم في تعريف أنفسهم كـ «شعب».

ومثلما كان الفرنسيون في الماضي واثقين من أن آباءهم المباشرين كانوا غاليين، أو مثلما عرف الألمان المعاصرون في الماضي أنهم أحفاد التوتونيين - الآريين، كان واضحاً لليهود أنهم ذرية أصيلة للذين خرجوا من مصر. وبإمكان الحق التاريخي في فلسطين أن ينبع فقط من أسطورة «الآباء العبرانيين»، وما زال كثيرون جدا شركاء في ذلك حتى اليوم. وجميعنا يعلم أن الانتماء إلى طائفة دينية في العالم المعاصر لا يمنح حقوق ملكية على إقليم. بينما في المقابل ثمة لشعب «إثني» دائماً أرض في مكان ما وهي «بلد آبائه».[٣]

لذا، ليست التوراة بالنسبة للمؤرخين الصهيونيين الأوائل، مجرد مجموعة أخرى من الكتابات الثيولوجية المثيرة للإعجاب، وإنما هي كتاب تاريخي علماني يتعلمه جميع أولاد إسرائيل اليهود منذ عامهم الأول في المدرسة وحتى حصولهم على شهادة البجروت (التوجيهي). وفي هذه الدروس توقف «شعب إسرائيل» عن كونه «شعبا مقدسا» وتحول إلى قومية من «ذرية إبراهيم». علاوة على ذلك، عندما بدأ علم الآثار الحديث في إثبات أن الخروج من مصر لم يحدث، وأن المملكة المتحدة الكبرى لداود وسليمان لم تكن موجودة بتاتاً، كان رد الفعل الشعبي العلماني في إسرائيل شديدا ومحرجا، وحتى أنه كان هناك من لم يترددوا في وصف علماء الآثار الجدد بأنهم «منكرو التناخ».

---

٣ . أنظروا حول ذلك كتابي «متى وكيف اخترعت أرض إسرائيل؟» (كنيرت - زمورا بيتان، ٢٠١٢) الذي بحث في قضية استملاك «أرض الآباء» (صدرت ترجمة عربية لهذا الكتاب عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- مدار بعنوان «اختراع أرض إسرائيل» - المترجم).

النفي والذاكرة التاريخية

إن علمنة التوراة تمت في موازاة تأميم «الشتات». وجرى تحويل الأسطورة المؤسسة حول نفي «الشعب اليهودي» على يدي الرومان إلى ذريعة صلبة للحقوق التاريخية في فلسطين والتي تحوّلت في الخطاب الصهيوني إلى «أرض إسرائيل». ونصادف هنا إحدى التقنيات المذهلة في بلورة الذاكرات الجماعية: رغم أن جميع المتخصصين في التاريخ اليهودي القديم كانوا يعون دائما أنه لم يحدث نفي روماني لسكان يهودا - ولذا لا يوجد أيضا ولو بحث واحد حول هذا الموضوع - فإن جميع البشر يعرفون بصورة أكيدة، وهم مقتنعون بذلك حتى اليوم، أن «شعب إسرائيل» القديم اقتلع بالقوة من وطنه، مثلما جاء بصورة احتفالية في وثيقة استقلال إسرائيل ومثلما هو محفور على أوراق العملة الإسرائيلية.

وقد أخذ المؤرخون الصهيونيون مصطلح «شتات»، الذي عبر في اليهودية عن رفض الاعتراف بالنعمة المسيحية التي كانت قد حلّت على العالم، وسكبوا فيه معنى ماديا سياسيا. وحوّلوا التناقض الميتافيزيقي - الثيولوجي العميق «شتات - خلاص»، بموهبة فائقة، إلى «شتات - وطن». وتاق يهود مؤمنون إلى صهيون طوال مئات كثيرة من الأعوام، مدينتهم المقدسة، لكن حتى أولئك الذين سكنوا بمحاذاتها لم يفكروا أبدا بالهجرة إليها من أجل العيش فيها. وكما هو معروف، فإنه من الصعب وغير المريح العيش في قلب مكان مقدس. والحقيقة هي أنه حتى أولئك القلائل الذين سكنوا فيها كانوا يعلمون جيدا أنهم ما زالوا موجودين في الشتات. وفقط عندما يأتي المسيح سيكون بالإمكان الصعود، بالمعنى الميتافيزيقي، إلى القدس، وذلك - يجب ألا ننسى - مع جميع الأموات.

هل الفلسطينيون هم ذراري العبرانيين القدماء؟

إذا لم يتم نفي السكان المحليين في يهودا، فما الذي حدث لهم؟ لقد افترى عليّ نقادي بأنني أزعم أن فلسطينيي اليوم هم الذراري المباشرون لسكان يهودا القديمة. ولست أنا الذي طرح ادعاء كهذا - ففي كتابي اقتبست الصهيونيين الأوائل في البلاد، مثل يسرائيل بلكيند، دافيد بن غوريون وإسحق بن تسفي، الذين كانوا متأكدين من أن الفلاحين العرب الكثيرين الذين

التقوا بهم في بداية استيطانهم كانوا أحفاد «الشعب اليهودي» القديم، ولذلك يجب الاتحاد معهم.[4] إن هؤلاء الطليعيين وغيرهم عرفوا حق المعرفة أنه لم يكن هناك نفي في القرن الأول الميلادي ولذلك أكدوا، منطقيا، أن الكتلة البشرية المحلية أسلمت في بداية القرن السابع لدى مجيء الجيش العربي. وانقلبت مواقف بن غوريون رأسا على عقب عندما اشترك لاحقا في كتابة وثيقة استقلال دولة إسرائيل، ولم يشرح سبب هذا الانقلاب على الإطلاق.

أنا أفترض، في مقابل ذلك، أن أصل فلسطينيي اليوم متنوّع وغني، وذلك على غرار معظم الشعوب المعاصرة. وقد ترك كلّ محتل في المنطقة أثره ونطفته. وتزوج المحتلون المصريون والفارسيون والبيزنطيون من نساء محليات وأنجبوا الكثير من الأحفاد. لكن، على الرغم من أن هذه الحقيقة ليست ذات أهمية بنظري، ما زلت أفترض أنه حتى لو لم يكن دقيقا، إلا إن بن غوريون الشاب كان محقا: ثمة احتمال بأن تقارب الأصل بين شخص من الخليل والعبرانيين القدامى أكبر منه لدى معظم الأشخاص الذين يعرفون أنفسهم كيهود في أنحاء العالم.

الملاذ الأخير – دي. إن إيه يهودي

بعد أن نفدت جميع التسويغات التاريخية تمسك الكثيرون من نقادي بحجة المعطيات الجينية. وفي أحيان متقاربة ينهي هؤلاء النقاد، الذين يكررون أن الصهيونيين لم يتمسكوا أبدا بالمفهوم العرقي، تهجماتهم عليّ بالاستناد إلى «جينات يهودية». ربما بالإمكان تلخيص حججهم على هذا النحو: «لسنا عرقا طاهرا، وإنما مجرد أبناء شعب – عرق واحد». وقد بحثوا في خمسينيات القرن الماضي في إسرائيل دون فائدة عن بصمات أصابع تميّز اليهود أو عن أمراض منسوبة لهم فقط، ومنذ السبعينيات يبحث بيولوجيون في مختبرات الأبحاث في إسرائيل (وفي ييشيفاة يونيفرسيتي في نيويورك) عن قاسم مشترك وراثي لجميع «أبناء إسرائيل» في العالم.[5] وقد تناولت في كتابي بصورة مفصلة الإهمال في المعطيات، والتغيرات

٤ . أنظروا مثلا دافيد بن غوريون وإسحق بن تسفي، «أرض إسرائيل في الماضي والحاضر» (١٩١٨)، يد بن تسفي، ١٩٨٠، ص ١٩٦-٢٠٥.

٥ . أنظروا مثلا مقالا حول كتابي Patricia Cohen, «Book Calls Jewish People an ‹Invention›», *New York Times*, 24.11.2009.

المتكررة في استنتاجات الباحثين وحماستهم الإثنو - قومية التي تفتقر إلى أي أساس علمي جاد. ولعلّ أكثر شيء برز بين معظم هؤلاء الـ «علماء» هو اعتمادهم على الرواية التاريخية التقليدية ومنظومة مصطلحاتها التي تعلموها خلال مرحلة شبابهم في المدرسة الثانوية. وهكذا، بعد أن استبطنوا ذلك المنطق التاريخي وترجموه إلى «علم دقيق»، يأتي المؤرخون وينسخونه مرة أخرى إلى «علم التاريخ». وذكرني البيولوجيون المؤيدون للصهيونية أكثر من أي شيء آخر بباحثي الأنثروبولوجيا المادية في نهاية القرن التاسع عشر الذين عملوا بصورة علمية دقيقة في قياس الجماجم من أجل اكتشاف التميز الخاص للأوروبيين. وبالإمكان أيضا مقارنتهم بعالم البيولوجيا السوفييتي تروفيم ليسينكو (Lysenko) وزملائه «رجال العلم» الذين عملوا في خدمة الستالينية وحاولوا بكل ما أوتوا من قوة تغيير الزراعة في الاتحاد السوفييتي.

إن خبراء علم الوراثة الذين في خدمة الصهيونية يطلقون النار أولاً وبعد ذلك يحددون الهدف. وينبغي التذكر أنه حتى الآن لم ينجح حتى فريق أبحاث واحد في تصنيف وتشخيص أساس وراثي نموذجي يقتصر على اليهود من بين كتلة كبيرة من عينات دي. إن. إيه مصدرها غير معروف. وعلى ما يبدو فإن هذا لن يحدث أيضا.[٦] إنها لسخرية تاريخية محزنة - أحفاد مطاردي النازية يبحثون عن هوية يهودية في البيولوجيا (هتلر كان سيبدو مسرورا بعد أن فشل هو نفسه في ذلك). وثمة أمر آخر يدعو إلى الغضب، هو أن أبحاثا من هذا القبيل تجري في دولة انتهجت وتنتهج طوال أعوام سياسة معلنة لـ «تهويد» البلد، وهي الدولة التي لا يمكن فيها حتى اليوم لليهودي أن يتزوج من غير اليهودية وبالعكس، وهي دولة توجد فيها مستشفيات تتلقى تبرعات للحيوانات المنوية من المسرحين من الجيش الإسرائيلي فقط.

متهودون، خزر ومؤرخون

حتى لو اتفق معي جميع نقادي تقريبا على أن نفي «شعب يهودي» في القرن الأول أو القرن

٦ . اقرأوا مثلا المقال المثير Eran Elhaik, «The Missing Link of Jewish European Ancestry: Contrasting the Rhineland and the Khazarian Hypotheses», *Genome Biology and Evolution*, 5, 2013, 61-74.

الثاني الميلادي لم يحدث، واعترفوا بأن التوراة ليست كتاب تاريخ، إلا إن الكثيرين انتقدوني على فصلين ثانويين خصصتهما للقضية الخزرية. «لقد قرأنا جميعا عن الخزر في طفولتنا»؛ «هذه نظرية قديمة وغير مسنودة»؛ «الكاتب المعادي للسامية آرثر كوستلر (Koestler) اخترعها»؛ «العرب يستخدمونها منذ فترة طويلة» وغير ذلك. وقد شدتني بشكل خاص حقيقة أن هؤلاء النقاد لم يقولوا كلمة واحدة تقريبا حول التهوّد الذي فرضه الحشمونائيم بالقوة على جيرانهم، وحول تغيير الدين الجماعي في حوض البحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة،[7] وحول مملكة حدياب في بابل التي تهودت، وحول مملكة حميَر في جنوب شبه الجزيرة العربية التي تهودت، وحول البرابرة في شمال إفريقيا الذين تبنوا توراة موسى. وخلافا لما يبدو الآن، كانت الديانة اليهودية توحيدية وتهويدية وديناميكية منذ القرن الثاني قبل الميلاد وحتى بداية القرن الرابع الميلادي على الأقل، ولن تتمكن أي مستمسكات من نقض ذلك. وفقط في فترة متأخرة - عندما كان الشرط لوجود أقلية يهودية في العالم المسيحي (أو الإسلامي) المنتصر هو الوقف المطلق تقريبا لمحاولات التهويد - جاء الانطواء الطائفي. لكن في المناطق التي بقيت وثنية استمرت اليهودية بالفوز، ونصل هنا إلى لغز الخزر.

كانت إمبراطورية الخزر العظيمة آخر إمبراطورية تهودت، على ما يبدو في القرن الثامن الميلادي، ولا يوجد أي جدل حول ذلك. ويثور غضب المؤرخين الصهيونيين اليوم عندما تجري محاولة للربط بين الوجود اليهودي الكبير في أوروبا الشرقية وتفكك مملكة الخزر وهجرة الكثيرين من رعاياها المؤمنين إلى مناطق أوكرانيا، روسيا، بولندا وهنغاريا. لكن يجب أن نعلم: إن النظرية التي تدعي أنه لا يمكن فهم القوة الديمغرافية اليهودية في هذه المناطق من دون وجود مملكة متهودة بأقاليمها الخزرية لم يختلقها كوستلر أبداً. إن مشكلة هذا الكاتب المعروف الوحيدة هي أنه نشر كتابه في وقت متأخر جداً. والحقيقة هي أنه حتى ستينيات القرن الماضي تمسك بهذا الموقف معظم المؤرخين في العالم، وبينهم الصهيونيون. وأقتبس في كتابي عددا غير قليل منهم (لذا فاجأتني الانتقادات الغريبة التي وجهت ضدي

---

٧ . باستثناء مارتن غودمان (Goodman) الذي يواصل التمسك بصورة ساذجة بالأسطورة الصهيونية التي تفسر الزيادة الديمغرافية الهائلة في العصور القديمة بأن اليهود، خلافا لجميع الأغيار، منعوا الإجهاض ولم يقتلوا أطفالهم. أنظروا نقده لي: «Secta and nation», *Times Literary Supplement*, 26.2.2010.:

وفحواها أنه «دائماً عرفنا وكتبنا عن الخزر».[8] وسأورد عدة أمثلة على ذلك:

ادعى بن تسيون دينور، أبو الهستوريوغرافيا في إسرائيل ووزير التربية والتعليم في الخمسينيات، أن الخزر أصبحت «أم الشتات، وأم أحد تجمعات الشتات الكبرى، شتات إسرائيل في روسيا، ليتوانيا وبولندا.» وشدّد شالوم بارون، المؤرخ الأميركي - اليهودي، ومن مؤيدي إسرائيل، على أن «هذه التجربة المهمة للملكية اليهودية مارست طوال عشرات يوبيلات الأعوام من وجودها (٧٤٠- ١٢٥٠)، ومن خلال ملحقاتها المستمرة داخل المجتمعات الشرق أوروبية، تأثيرا بالغا في التاريخ اليهودي - وهو أكبر مما نحن قادرون حاليا على استيعابه. ومن الخزر بدأ اليهود يتسللون إلى قفار أوروبا الشرقية الواسعة. وهذا الترحال جرى خلال ازدهار مملكة الخزر ولدى أفولها أيضا».[9]

عندما أقدم الباحث الفرنسي المعروف مارك بلوخ على تعريف اليهود حدّد أنهم «مجموعة من المؤمنين الذين ظهروا عمليا في الماضي البعيد في أنحاء عالم البحر المتوسط، التركي - خزري والسلافي».[10] والكتاب الأهم والأساس الذي يشير إلى أن أصل معظم يهود أوروبا الشرقية متسلسل من قبائل عاشت تحت حكم الإمبراطورية الخزرية، ألّفه أبراهام فولك، مؤسس قسم تاريخ الشرق الأوسط في جامعة تل أبيب.[11] إن الفارق بين الصهيونيين وغير الصهيونيين في قضية متهودي الخزر كامن في أن الأوائل يتمسكون بالادعاء غير المعقول الذي يعتبر أنه وصلت إلى هذه المملكة في البداية جموع يهودية جاءت من «أرض إسرائيل» - وهذه محاولة يائسة من أجل الحفاظ على ذرية إبراهيم.

ربما أخطأ جميع الباحثين الذين أقروا بأن معظم يهود أوروبا الشرقية جاء من أنحاء مملكة الخزر الكبرى. لكن منذ نشر نظرية فولك في الأربعينيات لم يتم العثور على مؤرخين ثقة دققوا في العلاقة بين القبائل المتهودة التي عاشت في هذه المملكة وبين تطور شعب البيديش الكبير.

---

٨ . أنظروا مثلا مقال يسرائيل برطال، «اختراع الاختراع»، تسيون، ٦٦، ٢٠١١، ص ٥٠٩-٥١٤.

٩ . دينور، «إسرائيل في الشتات»، دفير، 2,1961 . I، ص ٥. بارون، «تاريخ اجتماعي وديني»، IV، مسادا، ١٩٦٠، ص ١٧٤-١٧٥.

١٠ . أنظروا مثلا Marc Bloch, *L'Étrange défaite*, Paris, 1990, p. 31.

١١ . أبراهام فولك، «الخزر - تاريخ مملكة يهودية في أوروبا»، مؤسسة بياليك، ١٩٥١.

لم يتم الكشف عن أي اكتشاف موثق جديد، ولم يكتب أي بحث جديد يثبت أو يضيء كيف أنه من بين الأقلية اليهودية الصغيرة في غرب ألمانيا خرجت الهجرة الجماعية التي صنعت يهود الإمبراطورية الروسية وجاراتها. وحسابات خبراء صهيونيين في الشؤون الديمغرافية على أشكالهم، الذين يحاولون إثبات أن اليهود تكاثروا حتى هذه الفترة عشرات المرات أكثر من جيرانهم، مفندة بشكل مطلق.[١٢] وفي هذه الأثناء، طالما لم تظهر نظرية معقولة أخرى، فإن وجود مملكة يهودية في الشرق في العصور الوسطى فقط من شأنه أن يساعدنا في حل لغز «الانفجار» الديمغرافي - اليهودي الكبير الذي لم يحدث في أي منطقة أخرى في العالم (وينبغي أن نتذكر أيضا أن أبحاثا لغوية مختلفة تشدد على أن مصادر لغة الييديش ليست شبيهة أبدا بتلك الألمانية - اليهودية التي تحدثوا بها في غيتوات ألمانيا الغربية).

لكن لم يعد بالإمكان، منذ تراجع الاستعمار الذي حدث في العالم الثالث، وظهور الحركة الوطنية الفلسطينية بالتزامن مع احتلال إسرائيل كل الحيّز الواقع بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط، التشكيك في الأصل المؤكد لمحتلي القدس المعاصرين. وجميعهم أو أغلبيتهم الساحقة على الأقل، يجب أن يكونوا من ذراري مملكة داود وسليمان. لذا، فإن الخزر اليهود الذين طردوا بعد الحرب العالمية الثانية من الهستوريوغرافيا السوفييتية، طردوا مرة أخرى على يدي الهستوريوغرافيا الصهيونية بعد حرب العام ١٩٦٧. وفي كلتا الحالتين جرى مجددا تصميم الذاكرة القومية لخدمة حاجات أيديولوجية.

---

١٢ . أنظروا النقد المنهجي لدى Jits Van Straten لمؤرخين وخبراء في الشؤون الديمغرافية مثل برنارد فاينريف وسيرجيو ديلا فيرغولا في مقاله «Early Modern Polish Jewry:The Rhineland Hypothesis Revisited», in:*Historical Methods. A Journal of Quantitative and Interdisciplinary History Quarterly*, 40: 1, 2007, 39-50.

إنكار وجود شعب إسرائيلي

لقد اتهموني بأني «منكر الشعب اليهودي»[١٣] ويجب أن أعترف بأن هذا ليس خاطئا تماما، رغم أن هذه الصياغة غايتها التنديد بي، وتحاول أن تلمح إلى تهمة أكثر فظاعة - إنكار اليهودوسايد.

لكن، هل الصعود البطيء لإعلام واسع ومتتابع - كان بمثابة أول سندان لتشكل شعوب تحت ممالك ذات حكم مركزي مرّت بحداثة أو تحت حكم دول قومية أولى - لم يوجد شعبا يهوديا أيضا؟ الإجابة سلبية. فباستثناء أوروبا الشرقية، التي بدأت القوة الديمغرافية لليهود والمبنى المتميز والمنفصل للحياة اليهودية فيها ينضجان إلى درجة وجود ثقافة ولغة محددتين، لم يتشكل شعب يهودي عالمي أبداً. وحزب البوند الكبير، الذي كان أحد التعبيرات القومية الصرفة ليهود الشرق، عرف أن حدود الشعب الذي أراد تنميته وجاء لحمايته هي في مجال لغة البيديش. والمثير أن الصهيونيين الأوائل في أوروبا الغربية خصصوا فلسطين ليهود شعب البيديش لا لأنفسهم. وهم، كما هو مذكور آنفا، أصبحوا بريطانيين، فرنسيين، ألمانيين أو أميركيين حتى النخاع، وحتى أنهم حاربوا بحماسة في إطار حروب بلادهم الوطنية.

لكن، حتى لو لم يكن هناك شعب يهودي في الماضي، أفلم تنجح الصهيونية في صنعه بواسطة مشروعها التاريخي؟ إن أي قومية سعت إلى نحت قوميات - أي مجموعات بشرية تطالب لنفسها بسيادة أو تصرّ على الحفاظ عليها - اخترعت شعبا متخيلا ذا أمد تاريخي خلفي عميق. وهكذا فعلت الحركة الصهيونية. لكن إذا كانت الصهيونية، مثل حركات قومية أخرى، قد حققت غايتها باختلاق خلفي لشعب يكاد يكون أزلياً فإنها خلافاً لهذه الحركات لم تفعل الكثير من أجل إيجاد قومية يهودية «عالمية» في المستقبل. وكما هو معروف، لا يوجد الآن مكان في العالم ليس بإمكان أولئك الذين يرون أنفسهم بأنهم يهود أن يهاجروا منه إلى إسرائيل. وعلى الرغم من ذلك فإن الأغلبية الكبرى تفضل ألا تعيش تحت سيادة مشتركة، وتواصل العيش بسكينة وتجانس في دول قومية أخرى.

---

١٣ . على سبيل المثال، مقال Anita Shapira, «The Jewish-people deniers», *The Journal of Israeli History*, 28: 1, 2009,63–72.

بيد أنه إذا لم تلد الصهيونية شعبا يهوديا عالميا، وبالتأكيد لم تلد قومية يهودية، فإنها رغم كل شيء جلبت إلى العالم شعبين، وحتى قوميتين جديدتين، ولسوء الحظّ فإنها لا تبتهج للاعتراف بهما، بل تنظر إليهما على أنهما ابنان غير شرعيين. ثمة الآن شعب فلسطيني، هو منتج مباشر للاستعمار، ويتطلع إلى سيادته على نفسه ويحارب جاهدا على بقايا موطنه، وثمة شعب إسرائيلي يبدي استعدادا للتضحية بنفسه من أجل الدفاع عن استقلاله القومي. وتوجد لهذا الشعب الأخير، الذي خلافا للأول لا يحظى حتى بأي اعتراف من جانب مؤرخين أو سياسيين إسرائيليين، لغة خاصة به، جهاز تعليم عام، أدب، سينما ومسرح. وكل هذه المنظومات تعبر عن ثقافة يومية صاخبة وديناميكية لا يشترك فيها يهود العالم.

بإمكان الصهيونيين في العالم التبرع بالمال لإسرائيل، وقد يمارسون ضغوطاً على حكوماتهم لصالح السياسة الإسرائيلية، لكنهم لا يفهمون اللغة القومية التي يفترض بها أن تكون «لهم»، ويمتنعون عن الانضمام إلى «الشعب الذي هاجر إلى بلد آبائه»، وكذلك يبذلون جهودا كي لا يرسلوا أولادهم إلى حروب الشرق الأوسط. وجميعنا نعرف أنه لو سمحوا للخارجين من دول الاتحاد السوفييتي السابق بالهجرة إلى الولايات المتحدة مباشرة، لاختارت أغلبية كبيرة بينهم هذه الإمكانية، مثلما فعل يهود شعب اليديش قبل ذلك بمئة عام. وبالإضافة إلى ذلك كله، ووفقا لاستطلاعات الرأي العام فإن نحو أربعين بالمئة من «اليهود» الذين يعيشون في إسرائيل يدرسون بصورة جادة الهجرة منها - فهم في الشرق وقلبهم في الغرب.

***

من شبه المؤكد أن الشرق الأوسط الآن هو المكان الأخطر بالنسبة لأولئك الذين يرون أنفسهم بأنهم يهود. إن أحد أسباب هذا الخطر الدائم هو، من ضمن أسباب أخرى، حقيقة أن الصهيونية تنكر وجود شعب إسرائيلي، وتعزله عن محيطه، وترى فيه طليعياً فقط لغاية الاستيطان الذي يجب أن يستمر إلى الأبد، وتتطلع دائما إلى توسيع حيزاته الإقليمية، وتفضل تغليفه بأيديولوجيا استعراقية منعزلة ومتقوقعة وانطوائية.

إن مستقبل هذه «المملكة الصليبية» الجديدة، وكيلة العالم «الغربي» في قلب الشرق، يكتنفه الشك.